# سمات البلاغة النبوية

## بين الجاحظ والرافعي والعقاد

أ. د عدنان محمد زرزور
الأستاذ بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية الشريعة بجامعة قطر

## تمهيـــــد :

تحتل البلاغة النبوية الذروة العليا من البيان في أدب العرب؛ قال يونس بن حبيب (١)، الراوية الأديب الناقد، «ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ» (٢) ولكن هذه البلاغة تبقى في حدود البيان «الإنساني» أو بلاغة البشر، ولا تصل - كما لم يرد لها بطبيعة الحال - إلى درجة البيان القرآني الذي بلغ حد الإعجاز.

وقد تساءل الباقلاني بقوله : فهل كلام النبي ﷺ معجز؟ وأجاب بقوله : إن هناك فرقاً بين القرآن وكلام النبي ﷺ وان كان النبي أفصح العرب، فالفرق بين القرآن وكلامه عليه الصلاة والسلام مثل الفرق بين كلام الله وكلام الناس (٣).

ويمكننا القول، تعقيباً ووضعاً للبلاغة النبوية في أعلى طبقات البلاغة الإنسانية - وهو الموقع الذى سنومىء إليه في هذا البحث بالقدر الذي يجلو فيه شعاع خافت من الضوء الوجه المشرق لهذه البلاغة - إن بلاغة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه تقع على القنطرة الواصلة بين إعجاز القرآن وبلاغة البلغاء.. وإن شئت قلت : بلاغة المرسلين. يقول الأستاذ عباس محمود العقاد : «كان محمد ﷺ فصيح اللغة، فصيح اللسان، فصيح الأداء. وكان بليغاً مبلغاً على أسس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية. وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين، بل قدوة المرسلين» (٤).

ونورد هنا ملاحظتين في هذا التمهيد قبل المضي في هذا البحث :

**الملاحظة الأولى** : أن البناء المعجز - المتفرد - للقرآن الكريم، في كل سورة من سوره، تم عن طريق (الوحي) الذي كان ينزل به أمين السماء جبريل عليه السلام على

---

(١) ولد سنة ٨٤ هـ وتوفي سنة ١٨٢ وهو يونس بن حبيب الضبي بالولاء، عالم بالأدب، وإمام نحاة البصرة في عصره. أخذ عنه سيبويه، والكسائي، والفراء، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وخلف الأحمر، وأبو زيد الأنصاري، وغيرهم من الأئمة. قال ابن النديم : كانت حلقته بالبصرة ينتابها طلاب العلم وأهل الأدب، وكانت مجمع فصحاء العرب ووفود البادية. وقال أبو عبيدة : اختلفت إلى يونس بن حبيب أربعين سنة أملأ كل يوم ألواحي من حفظه. قال ياقوت : «وكان يونس عالماً بالشعر، نافذ البصيرة في تمييز جيده من رديئه..» ومن كلامه : ليس لعييّ مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء!
معجم الأدباء ٢٠/ ٦٤ والأعلام ٩/ ٣٤٤.

(٢) البيان والتبيين، للجاحظ ٢/ ١٧.

(٣) أنظر إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر رحمه الله، ص ٢٩١.

(٤) عبقرية محمد للعقاد، دار الكتاب العربي ١٩٦٩، ص ١١٩.

قلب النبي ﷺ. وفي هذا دليل ظاهر على صدق ظاهرة الوحي، وأنها ليست حالة مرضية أو شاذة! لأن «الكلام» الذي صدر عنها، وهو القرآن الكريم، انفصل من جنس كلام النبي الذي كان يقوله في أحواله العادية، أو في غير الحالة التى يكون عليها حين ينزل عليه الوحي. . والتي تحدثت عنها كتب السنة والسيرة. . حتى استحال على الثقلين جميعاً أن يأتوا بسورة من مثله ! ولكن - وهذا ما نود التأكيد عليه في هذا السياق - لم يصعب على بعضهم أن يحاكي أسلوب النبي نفسه، أو ينسج على منوال طبقته في البلاغة، فيضع على لسانه حديثاً أو أحاديث ربما وقع الظن أو الاعتقاد بأنها من كلامه ﷺ. . لولا قواعد المحدّثين في قبول الرواية(٥)! أو بعبارة أدق : لولا نهوض المحدثين ببيان هذه النسبة الكاذبة من خلال القواعد التي وضعوها، والعلم الذي استحدثوه! القرآن الكريم إذن لايقبل المحاكاة أو التقليد. فضلاً عن الإضافة أو التعديل ! وليس كذلك حال السنة النبوية وكلام النبي ﷺ. لأن الفرق بينهما كما أشرت هو الفرق بين كلام الله وكلام البشر. . والكلام المعجز وغير المعجز ! وليس من قبل الطرائف عندنا أن نستدل على إعجاز القرآن - لزومه ووقوعه - بالحديث الموضوع! وربّ ضارة نافعة. ولم نعثر على من سلك طريق المحدّثين في نقد الروايات لينفي عن القرآن الكريم ما اختلط به أو أضيف عليه، لأن نسيجه المتفرد، أو بناءه الخاص كاف في نفي أي «آية موضوعة» أو نص مكذوب!

ونشير بهذه المناسبة إلى أن ما روِي عن مسيلمة كان فيما نقدّر من عمل الرواة استهزاء به، وفضحاً لحاله! ويبعد عندنا على من كان في مثل دهاء مسيلمة وأطماعه، في ذلك الوسط اللغوي والبياني المتميز أن ينحدر إلى هذا المستوى. وحتى لو سلّمنا بأن هذا كان من عمل مسيلمة، فإنه - في هذه الحال - آكد في الدلالة على ما نقول، أو على نفي النبوة عن مسيلمة، لأنه يحمل بمجرد سماعه الدليل على أنه ليس بسبيل من القرآن، أو من محاكاته أو مضاهاته بحال، علماً بأن الرجل لم يزعم أكثر من أنه أوحي إليه، وأنه قد نزل عليه مثل ما نزل على محمد! فهي إذن «معارضة» للرسول. . قبل أن تكون «معارضة» للقرآن، أو قبولاً للتحدي به بوجه من الوجوه! وليست في جميع الأحوال إلحاقاً به أو إضافةً عليه!

---

(٥) راجع مَبحث (الوحي أو مصدر القرآن الكريم) من كتابنا : علوم القرآن، ص ٥٩.

يضـاف إلى ذلك أن المزاعم بـدخـول حيف أو نقص على النص القـرآني - وليس الزيادة - لم تعرف في عصور السليقة العربية الأولى، ولم تجد «أذناً» صاغية إلا عند نفر من الأعاجم بعد مضي بضعة قرون على عصر نـزول القـرآن الكـريم [٦]، «ويكفي إن زعم لك زاعم أن لديه سورة مجهولة أو نصاً مفقوداً، أن تلاحظ - فقط - الفـرق بين التراكم الركيك من الكلمات وبعض العبارات المسروقة من القرآن نفسه، وبين أناقـة الأسلوب القرآني وتناسقه وإعجازه» [٧].

**الملاحظة الثانية** : إن تصنيف البلاغة النبوية في طبقة البلاغة الإنسانية هـو الـذي أوحى للبـاقـلاني فيما يبـدو بأن يضم بعض أحـاديث النبي ﷺ وخطبـه إلى خطب «ونصوص» أخرى لسائر أرباب البيان في الجاهلية والإسـلام - أو إلى أرفع مـا وصل إلينـا من هـذه النصـوص - من أجل مقـارنـة أي منهـا بـالقـرآن الكـريم . . تأكيـداً واستـدلالاً من البـاقـلاني على إعجـاز القـرآن، أو على حصـولـه ووقـوعـه في نفس السامع . وكأن الباقلاني يقدم موقفاً عملياً أو درسـاً نقـدياً تطبيقيـاً يثبت للقـارىء انفصال كلام الله تعالى عن سائر أنواع الكلام بوجـوه من البيـان صـار بها معجـزاً . . وإن قعد بالكاتب علمه وبيانه عن إدراك هذه الـوجـوه أو عن نقلهـا والتعبير عنهـا! وربما خامرنا اليوم، مع بعدنا النسبي عن السليقة العربية، الشعور بحقيقـة الإعجـاز ونحن نقـرأ القـرآن أو نستمع إليـه أكثـر من وقـوفنـا على حقيقتـه من خـلال الآراء والنظريات التي قيلت في تفسيره على أهمية بعضها البالغ في الأخذ بيدنا نحو الوقوف على المزيد من أسباب هذا الإعجاز الخالـد [٨]! وربما كان عدم انفراد جيل واحـد من الأجيال أو عصر واحد من العصور بتفسير الإعجاز من كل وجه متسـاوقـاً مع قيـام التحدي بالقرآن . . أو استمرار هذا التحدي في جميع العصور . . أما الحديث النبـوي فلم يقع به التحدي في أي عصر كما هو معلوم . . وقد أشار النبي ﷺ نفسـه إلى سمـة «جوامع الكلم» التي خُصّ بها كلامه الشريف، وربما كان الشطـر الأكبر من السمات التي تحدث عنها النقاد - كما سنرى - تدور حول هذه السمة أو تنطلق منها . . الأمـر الذي يفسرّ جانبـاً من التكـرار في حـديث هـؤلاء النقـاد . . على الـرغم من مسـالك الدراسة المتشعبة وطرق التعبير المختلفة أو المتعددة .

---

(٦) راجع كتاب "مدخل إلى القرآن الكريم» للدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله، ص ٣٩.
(٧) كتاب علوم القرآن، للمؤلف. مصدر سابق، ص ٩٨.
(٨) المصدر السابق للمؤلف، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

ونصل هنا إلى الحديث عن فصاحة النبي ﷺ وميدان بلاغته، قبل أن ننتقل إلى الحديث عن سمات هذه البلاغة. ولهذا فإن هذا البحث سوف يدور حول محورين، يتناول الأول ثلاثة جوانب هي: سيرة النبي ﷺ (مدخل وكلمات)، فصاحته عليه السلام، ميدان بلاغته. بينما يتناول المحور الثاني سمات هذه البلاغة على النحو الذي تحدث عنه كلٌّ من الجاحظ، والرافعي، والعقاد.

## أولاً: حول فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم وميدان بلاغته:

**١ - في سيرة النبي وحياته ﷺ:**

نقدم في هذه الكلمة نقاطاً جامعة وخطوطاً عامة تصلح، فيما نقدر، مدخلاً علمياً لدراسة السيرة النبوية بوجه عام، وبين يدي الحديث عن بلاغته ﷺ بوجه خاص.

ليس في تاريخ الأنبياء والعظماء والمصلحين من عرفت صفاته وأخلاقه بكل دقائقها وتفاصيلها على النحو الذي عرفت فيه صفة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.. وأخلاقه وسيرته. ومن المعلوم أن كتب السيرة والسنة حفظت لنا وصفاً دقيقاً شاملاً لصفة النبي صلى الله عليه وسلم، وهيئته وحركته وسكونه. ووصفاً آخر لأخلاقه و«هديه» النبوي في جميع أبواب الحياة! أو في جميع أبواب التعامل في الحياة اليومية مع الأسرة، والمجتمع، والعالم! وصورت لنا الحروف والكلمات دقائق حياته في كل شيء! وقد ارتقت هذه الحروف والكلمات بتصوير ملامحه الجسمية، والهيئة التي يكون عليها في الرضا والغضب، والألم والفرح، والسرور والحزن. وسائر أحواله النفسية إلى الحد الذي تعجز عنه الخطوط والألوان. وقد لا تصل إليه أجهزة الالتقاط والتصوير في هذا الزمان! ويكفي للدلالة على هذا مراجعة واحد من فهارس كتب السيرة المشهورة، وبخاصة كتاب «الشمائل» للترمذي، وكتاب: زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم، وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (٩).

---

(٩) ذكر الأستاذ العلاّمة السيد سليمان الندوي رحمه الله أن المستشرق الفرنسي ماسينون قال له يوماً: يكفي لتعرف أوروبا محاسن رسول الله محمد ﷺ ومحامده أن ينقل كتاب (الشفا) للقاضي عياض إلى إحدى اللغات الأوروبية. أنظر الرسالة المحمدية، الدار السعودية للنشر، ص ٩١.
وقد ضم هذا الكتاب، مع الكتابين الآخرين، على كل ما يتعلق بنفس النبي الشريفة وشخصه الكريم، وعلى كل أطوار حياته ونواحيها المختلفة «كل ذلك في وضوح وجلاء بحيث لم يبق شيء من حياته مخفياً أمره، مكتوماً سره» نفس المصدر، ص ٩٠.

ويعود السبب في ذلك إلى أن النبي ﷺ مشرّع وقدوة ومثل أعلى إلى يوم الدين، وأنه ليس واحداً كآحاد الناس حتى وهو في بيته أو بين أهله وزوجه! «ولقد صدق فولتير في كلمته المشهورة: إن الرجل لايكون عظيماً في داخل بيته، ولا بطلاً في أسرته» يريد أن عظمة الرجل لا يعترف بها أقرب الناس إليه، لاطلاعه على دخيلته في مباذله (١٠)! ولكن رسول الله ﷺ لا ينطبق عليه هذا القول؛ لأن حياته الخاصة أو الشخصية، كما يقال، والتي يجري التفريق - في اطار الحديث عن العظماء - بينها وبين الحياة العامة أو الرسمية! ليس فيها مباذل! أو ليس فيها ما يُعاب! بل هي على العكس من ذلك. تحمل - وقد نقلت إلينا كما أشرت - مثالاً فريداً من أمثلة الصدق والتجرد. والعظمة والبطولة. فوق مافيها من العفاف والطهر، والمودة والإنسانية والرحمة. ولا يتسع المجال لتفصيل القول في هذا السياق. ولكن ربما كان في وسعنا أن نقول إن حياتي المرء السابقتين - الخاصة والعامة، أو الشخصية والرسمية - كلما اقتربنا كلما كان صاحبهما على عتبة الصدق والكمال.. حتى إذا تطابقتا وكانتا حياة واحدة في شخص النبي الكريم أدركنا واحداً من أسباب كثيرة أو وجوه كثيرة - لاتكاد تحصى - كان بها رسول الله المثل الأعلى والإنسان الكامل!

والذي يوجز هذا الكمال عندنا الملامح أو النقاط الثلاث التالية:

**النقطة الأولى**: أن حياة النبي ﷺ قد شملت جميع وجوه النشاط الإنساني.. وفي كل الحالات؛ فكان رسول الله ﷺ زوجاً وأباً وجداً، وراعياً وتاجراً، وحكماً وقاضياً، ومعلماً ومتعلماً، وخطيباً ومربياً، وقائداً ومحارباً، وملكاً وحاكماً... إلخ كما ضرب لنا المثل في حياته في البيت، وفي السوق، وفي المسجد، وفي السلم، وفي الحرب، وفي السفر، وفي الحضر.. وبين الأصحاب ومع الخصوم والأعداء.. بحيث يمكن لحياته الشريفة أن تكون قدوة وأسوة حسنة في كل شيء؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ (الآية ٢١ من سورة الأحزاب).

---

(١٠) المصدر السابق، نفس الصفحة.

والتدقيق في هذه النقطة يشير إلى أن حياة الرسول ﷺ جاءت على هذا النحو قدوة حسنة لجميع أصناف العباد، تبعاً لاختلافهم أو اختلاف مواقعهم في المواهب والتبعات، والأعمال والطاقات. أو هي قدوة حسنة لجميع أطوار النفس الإنسانية، أو لحالتي المرء أو للحالتين التي يتقلب فيهما الإنسان بين الغنى والفقر، والنصر والهزيمة.. أو التي يرتقي فيهما من الرعية إلى الحكم، ومن التعلم إلى التعليم... إلخ يقول الأستاذ العلاّمة السيد سليمان الندوي رحمه الله: «إن حياة موسى عليه السلام تمثل لنا القوة البشرية العظيمة والبطش الشديد، ولكننا لانعرف في المأثور عنه ما تكون لنا فيه الأسوة من ناحية دماثة الخلق وخفض الجناح وسجاحة النفس وسماحتها. وفيما نعرفه من حياة المسيح نماذج لسماحة النفس ورقة الطبع ودماثة الخلق ولين الجانب، لكننا لانجد فيما وصل إلينا من أخلاقه وأعماله تفاصيل عن شئون حياته وأسرته! تحرك ساكن القوى وتثير كوامن النفس وتنبه القوى المتراخية. والإنسانُ في حياته محتاج إلى هذا وهذا، فكما يحتاج إلى ما يهدىء ثائر قواه ويسكن جائشها يحتاج كذلك إلى ما يثير الكامن من هذه القوى ويهيج ساكنها وينبه المتراخي منها. إنه في حاجة إلى حياة يتخذها قدوة له في هاتين الحالتين المختلفتين، على أن يكون بيد صاحبها ميزان العدل بالقسط تستوي كفتاه».

ثم يقول رحمه الله: «ولن تجد الجمع بين هاتين الخصلتين المختلفتين جمعاً قوياً عزيز الوجود إلا في حياة محمد ﷺ، فإنه هو الذي مثلت حياته أعمالاً كثيرة متنوعة بحيث تكون فيها الأسوة الصالحة والمنهج الأعلى للحياة الإنسانية في جميع أطوارها، لأنها جمعت بين الأخلاق العالية الحسنة والعواطف النبيلة المعتدلة والنوازع العظيمة القوية»[11].

**النقطة الثانية**: أن رسول الله ﷺ بلغ في كل وجه من هذه الوجوه. وفي كل صورة من هذه الصور غاية مايصل إليه إنسان فرغ نفسه وحياته لهذه الصورة أو لذلك الوجه حتى حقق به السبق، أو أصاب فيه التفوق.. وسُلك به - من ثم - في عداد العظماء والمصلحين.

---

(١١) المصدر السابق، ص ١١٢-١١٣.

إن العظماء الذين أصابوا في التاريخ وجهاً من وجوه التفوق والنبوغ، وسادوا بهذا الوجه في أممهم، في السياسة، أو في الحرب، أو في التربية، أو في القضاء... إلخ ربما وقفت في سيرتهم من الوجوه الأخرى على أناس عاديين في بعض الأحيان، أو أشرار أو وضيعين في أحيان أخرى.. وبخاصة في نطاق ما سمي بالحياة الشخصية أو الخاصة التى أشرنا إليها قبل قليل! أما محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وسلامه فقد كان عظيماً في كل شيء.. نبيلاً في كل وصف.. قائداً وقدوة ومثلاً أعلى في كل شيء!

وحتى الأنبياء السابقون الذين هم صفوة البشرية وقادتها وحداة قافلتها عبر عصور التاريخ.. والذين برئت حياتهم من عيوب العظماء ومباذلهم، وقصورهم ونقائصهم إنما ذهبوا في التاريخ بوجه راجح من وجوه العظمة أو النبوغ في أخلاق النفس، وفي أعمال السلوك. مثل عزيمة إبراهيم، وصبر أيوب، وبأس موسى، وسماحة عيسى. عليهم الصلاة والسلام أجمعين. أما رسول الله ﷺ فقد اجتمع فيه ما تفرق في الأنبياء والمرسلين - وسائر الهداة والمرشدين - من فضائل الأخلاق، وجلائل الأعمال، ورجح ميزانه في كل فضيلة من هذه الفضائل، وعمل من هذه الأعمال على الذين ذهبوا بإحدى هذه الفضائل في التاريخ، وكان لهم بها - كما أشرت - المزية والرجحان! لا غرو أن كان محمد رسول الله خاتم النبيين. ولا غرو أن ختمت بشريعته الشرائع، فلا يلحق شريعته شريعة، ولا ينسخ دينه دين.. ولا غرو قبل هذا، وبعده، أن كان رسول الله مثال الأنبياء والمرسلين، بل قدوة الأنبياء والمرسلين، بحسب عبارة الأستاذ العقاد رحمه الله.

نعود فنقول: اذكر ما شئت من صفات النبل، واذكر ما شئت من معالم النشاط الإنساني، ووجوه التعامل مع الأسرة والمجتمع والعالم.. ثم انظر في سيرة رسول الله ﷺ تجده عظيم العظماء وبطل الأبطال.. وأكتفي هنا بذكر بعض هذه الصفات والمعالم.. أو بالتذكير بها!

(أ) إذا ذكرنا **العطف والرحمة** ذكرنا رسول الله وقد قارب الستين يبكي على قبر أمه بكاء من لا ينسى! وذكرنا حنانه على مرضعته وحفاوته بها يتلقاها وقد جاوز الأربعين هاتفاً بها أمي! أمي [١٢]! وذكرناه عليه الصلاة والسلام وقد أرسلت

---

(١٢) عبقرية محمد، للعقاد، ص ١٢٢.

إليـه ابنةٌ له أن ابناً لي قبض فأتنا! فأرســل يقـرىء السـلام ويقـول : إن لله مـا أخـــد ولـــه مـــا أعطى، وكل شيء عنـــده بأجل مسمّى، فلتصبر ولتحتسب! فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينّها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبيُّ ونفسـه تتقعقع كأنها شَنٌّ، ففاضت عيناه، فقال سعدٌ : يارسول الله ما هذا؟ فقال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء (١٣).

ثم تأمل ذكراه لشهـداء أحُد. حين خـرج للصـلاة عليهم بعـد ثمان سنين! قـال راوي الحديث عقبة بن عامر : «كالمودّع لـلأحيـاء والأمـوات»(١٤) . فذكراهم لاتزال حية في نفسه الشريفة، وصورهم ماثلة في خاطره وأمام عينيه.

وقد اتسعت عنده ﷺ عاطفة الرحمة حتى شملت جميع الأحياء.. وهو القائل : «في كل ذات كبد رطبة أجـر» والقـائل : «إن الله كتب الإحسـان على كل شيء!

فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» (١٥)ولطالما نهى عن تعذيب الحيوان!

وقد رأى مرة رجلاً أضجع شـاة للـذبح، وراح يحدّ شفـرتـه! فقـال لـه : هـلاّ حددتها قبل أن تضجعها! لقد أمتّها موتات! وقد كرر الوصايا بالبهائم «اتقوا الله في البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوهـا صـالحة».. وتحدث عن المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض! وعن الرجل الذي غفر له بكلب سقاه.. في حـديث البئـر المشهـور. واستنكر العدوان على حق الأمومة في عالم الطير! فقال في حـديث القبرة : «من فجع هذه بولديها»؟! وواسى في موت طائر كان يلهو به أخو خادمه!.. ولطالما كان يصغي الإناء للهرة لتشرب..

---

(١٣) رواه البخاري من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه والقعقعة : حكاية صوت الشيء اليابس إذا حُرك. (ونفسه تتقعقع» أي تضطرب وتتحرك، أراد : كلما صار إلى حال لم يلبث أن ينتقل إلى أخرى تقرّبه من الموت. والشنّ : القربة الخلقة اليابسة.

(١٤) رواه الشيخان. والمراد بالصلاة هنا بمعناها اللغوي، وهو الدعاء وطلب الاستغفار لهم.

(١٥) رواه مسلم من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

والناظر في واقع السيرة وأقوال النبي ومواقفه في هـذا الجانب يعلم أي «حقـوق للحيـوان» إن صح التعبير جــاءت بها السنــة والسيرة . . والتى يطمع كثير من البشر – شعوباً وأفراداً – في مثلها أو في قريب منها في القرن العشرين!!

بل إن العطف النبوي شمل الجماد حتى كأنه من الأحياء . . وفي كتـاب ابن القيم ثلاثة فصول لأسماء سلاح الرسول وأثـاثـه، ودوابـه، ومـلابسـه [16]. يقول الأستاذ العقاد : «وفي تسمية تلك الأشياء بالأسماء معنى الألفة التي تجعلها أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والعناوين، كأن لها «شخصية» مقربة تميزهـا بين مثيلاتها، كما تتميز الأحباب بالوجـوه والملامح، وبـالكنى والألقـاب» [17] وقد قال رسـول الله ﷺ في جبل أحُد، في أكثـر من منـاسبـة : «هـذا جبلٌ يحبّنـا ونحبّه» [18]!

(ب) أما **الحزم وشدة البأس** فبحسبنا منه موقفه ﷺ وعزيمته على القتال يوم الحديبية؛ روى البخاري من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسـول الله ﷺ بعد أن خلأت ناقتـه القصـواء، قـال : «والـذي نفسي بيـده لا يسألـوني خطـة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» . . حتى إذا علم بأمـر من نـزل من زعماء القوم «أعداد مياه الحديبية» وأنهم مقاتلوه وصادّوه عن البيت؛ قال رسول الله : «إنا لم نجيء لقتال أحد! ولكننا جئنا معتمـرين، وإن قـريشـاً قـد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم؛ فإن شـاؤوا مَادَدْتهم مـدة ويخلُّوا بيني وبين النـــاس؛ فإن أظهر فإن شـاؤوا أن يدخلوا فيمـا دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقـد جمّوا، وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سـالفتي، ولينفـذنّ الله أمره!» [19].

(جـ) وإذا ذكرت **التواضع والسماحة**، ذكرت قوله ﷺ، وقد قام له بعض الصحابـة عندما دخل عليهم مرة، «لا تقومـوا كما يقـوم الأعـاجم يعظم بعضهم بعضـاً»

---

(١٦) زاد المعاد لابن القيم، الجزء الأول، ص ١٣٠-١٣٩ مؤسسة الرسالة، ١٩٧٩.

(١٧) عبقرية محمد للعقاد، مرجع سابق، ص ١٢٤.

(١٨) رواه البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١٩) معنى : جمّوا : استراحوا وقووا. والسالفة : صفحة العنق، وكنّى بانفرادها عن الموت. والأعداد : جمع عِدّ : الماء الذي لا انقطاع له، سبقت إليه قريش.

وقوله : «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد» . . وذكرت أنـه كـان يمشي مع الأرملـة والعبـد والأمـة . . والمسكين، ويجيب دعـوتهم . . وذكرت موقفه يوم فتح مكة، الذي يعدل وحده مئات المواقف في التاريخ! فقد دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً بعد إحدى وعشرين سنة . . لم يترك أهلها خـلال هذه الفترة الطويلة سبيلاً للقضاء عليه وعلى دعوتـه إلا سلكـوه! حتى إذا تمكن منهم بعد هذا الكفاح الشاق، والجهاد الطويل، دخل مدينتهم مطأطىء الرأس «على راحلته حتى كاد يمسّ قـادمتـه!» ثم استغفـر لأهلهـا وأطلق لهم حـريتهم بكلمته المشهورة : «أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليـوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. اذهبوا فأنتم الطلقاء»[٢٠].

وجاء في صفته ﷺ أنه كان «يحلب شاته، ويرقع ثـوبـه، ويخصف نعلـه، ويخدم نفســه، ويقم البيت، ويعقل البعير، ويعلف نـاضحــه، ويأكل مـع الخادم، ويحمل بضاعته من السوق»[٢١].

( د ) أما عفتـه عليـه الصـلاة والسـلام وأمـانتـه وصـدقـه وحلمـه وصبره وحيـاؤه وكرمـه . . . إلخ هـذه الصفـات والشمائل فإننـا نعجـز في هـذا المقـام عن مجرد الإشارة إليها، فضلاً عن الإحاطة بها أو التعليق عليها، وأخبارهـا معـروفـة في مواضعها من كتب السيرة والسنة. ونكتفي هنا بـالإشـارة، في جـانب النشـاط الإنساني إن صح التعبير، أو في جانب الرياسة وتصريف شؤون المجتمع والناس على وجه الخصوص، إلى إدارته عليه الصلاة والسلام في أوقات السلم، وقيادته في أيام الحرب.

(هـ) إذا ذكرنـا "**الإدارة وتدبير الشؤون العامـة**» ذكرنا تلك «السليقة المطبـوعـة التي تعرف النظام، وتعرف التبعـة، وتعـرف الاختصـاص بـالعمل فـلا تسنـده إلى كثيرين متفرقين يتولاه كل منهم على هواه»[٢٢] وقرأنا في سيرة النبي الكريم أنه كان يوصي بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعي أو العمل المجتمع الذي يحتاج

---

(٢٠) زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٤٠٧-٤٠٨ والبيان والتبيين للجاحظ ٢/ ٣٠.

(٢١) الشفا للقاضي عياض، ومشكاة المصابيح ٢/ ٥٢٠.

(٢٢) عبقرية محمد للعقاد، ص ٩٨.

إلى تدبير . وأنه ﷺ كان يسند الأمر إلى المدبر القادر عليه . وكان تقديره في ذلك تقدير القائد أو الحاكم الذي يعرف أصحابه، ويقدر فيهم المواهب والتبعات، مع اختلاف المقام، واختلاف التجربة، واختلاف السنن! «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» وبحسبنا من إدارته العليا تدبيره للشؤون العامة حين تصطدم بالأهواء أو تنذر بالفتنة والنزاع، كما صنع حين أقام الحجر الأسود في مكانه يوم اختلفت على ذلك القبائل! وكما صنع حين نزل على دار أبي أيوب يوم الهجرة، وقد ترك الزمام لناقته تبرك حيث طاب لها أن تبرك (٢٣).

أما في **الحرب وقيادة الجيوش** فقد كان رسول الله قائداً بغير نظير، وكان مع القيادة يشارك في القتال حيث يعفي بعض القادة العظام أنفسهم من القتال. وكانت شجاعته هي الشجاعة المثلى . . أو الشجاعة التي يحتذيها القادة والشجعان! وبحسبك أن يقول علي بن أبي طالب فارس الفرسان : «كنّا إذا حمي الوطيس، واشتد البأس، واحمرّت الحدَق اتقينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، وكان أشجعُنا من كان أقرَب إليه (٢٤)! هذا مع الإشارة مرة أخرى إلى أن رسول الله ﷺ لم يتخذ من الحرب صناعة ينقطع إليها، كما فعل القادة العسكريون الذين ذهبوا في التاريخ بهذا الوجه من وجوه التفوق أو النبوغ! ولقد كان له ﷺ فضل السبق - على سبيل المثال - على «جبار الحروب الحديثة نابليون الذي تعلّمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع إلى أن سكن في منفاه» ولكنه لم يبلغ - لدى الموازنة والترجيح - في التخطيط والإعداد، ولا في الأسباب والنتائج ما بلغ الرسول القائد بين رمال الصحراء (٢٥).

ولا أدع هذه النقطة قبل التعليق على كلمة سيدنا علي كرّم الله وجهه، وبخاصة العبارة الأخيرة : «وكان أشجعنا من كان أقرب إليه»! فأقول :

إنها إذن ليست الشجاعة التي يحتذيها الشجعان . . وكفى! ولكنها كذلك الشجاعة التي ترتقي بالشجاعة في نفس الشجاع حتى يكون الأشجع . . أو أشجع من سواه . . بحكم الرؤية والمجاورة والقرب من الرسول! وهي كذلك، إن شئت أن تضيف، الشجاعة التى تعلّم أو تزرع الشجاعة في نفس الجبان!

---

(٢٣) المصدر السابق، ص ١٠٣ .

(٢٤) الشفا ١ / ٦٦ وحدائق الأنوار لابن الديبع، ص ٨٣٤ .

(٢٥) انظر عبقرية محمد للعقاد، الصفحة ٥٢ فمابعدها .

وعلى هذا النحو، أو من هذا المنطلق القيادي التربـوي والتعليمي - وغيره كثير- نفهم السبق الذي أصابه الصحابة الذين كانوا حول النبي ﷺ. . كلٌّ في الباب الـذي هيأه له الطبع والاستعـداد، والمواهب والملكـات. . والـذي وصلـوا فيـه إلى مقعـد القيادة والإمامة في جميع مجالات الحياة!

ونصل هنا إلى **النقطة الثالثة** في سيرة النبي ﷺ، أو في دراسة هذه السيرة، وهي أن الجانب الأكبر والأهم في نشأة النبي وحياته ﷺ هو مـوضع الأسـوة الحسنـة للفقـراء والضعفاء والمساكين. أو هو بتعبير أدق: موضع الأسـوة في الجانب الـذي تقلّ فيـه حيلة الإنسان، ولا يجد ما يركن إليـه أفضل من التأسي والصبر والمصـابـرة. ويمكن عد هذه النقطة تتمة واستدراكاً للنقطة الأولى السابقة! فإذا كانت حـالـة الغني - على سبيل المثال - التي مرت بالنبي ﷺ عندما كان تاجراً يسير بسلعه بين الحجاز والشام. أو حين ملك خزائن البحرين، ليكون قدوة للأغنيـاء والموسرين، أو مثـال الأغنيـاء والموسرين؛ فإن الحالة الأهم والفترة الأطول هي حـالـة الفقـر والشظف وخشـونـة العيش التي كان عليها أو عاش فيها رسول الله ﷺ معظم أيام حياته، وبخاصـة تلك الأيام الممتدة بعد النبوة والبعثة الشريفة. . مثالاً وقـدوة للفقـراء والمسـاكين إلى يـوم الدين قال الله تعالى في شأن هذه القدوة: ﴿لقد كان لكم في رسـول الله أسـوة حسنـة لمن كان يرجو الله واليـوم الآخـر وذكـر الله كثيرا﴾ (٢٦) فقيدها بمن «كان يرجـو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً». إشارةً إلى أن السيرة النبراس، أو حيـاة النبي الأسـوة أساسها أو قاعدتها رجاء الله واليوم الآخر. . وأن هذا الأساس لذلك هو قاعدة تربية الإنسان السويّ الذي تقوم به الحضارة المتوازنة، ويتحقق به سعادة المجتمع البشري. وقد تشير الآية الكريمة إلى أن من لا يرجـو الله واليـوم الآخـر، أو لا يـذكـر الله ولا يؤمن بيوم الحساب. . فله مع السيرة شأن آخر! ولكنه الشأن الذي يكـون بـه شقـاء الإنسان. وفساد المجتمعات الإنسانية! لاغرو أن تنطـوي السيرة في جـانبهـا الأعظم على الزهد، والشظف، وخشونة العيش. . وضروب كثيرة من المحن والآلام!

---

(٢٦) الآية ٢١ من سورة الأحزاب.

قلنا إن الجانب الأكبر في نشأة النبي وحياته هو موضع الأسوة في الجانب الذي تقل فيه حيلة الإنسان. ولا يجد ما يركن إليه أفضل من التأسي والمصابرة! ونضيف: إن الإنسان بحاجة على الدوام إلى مثل أعلى يحتذيه، ولكنه أكثر مايكون حاجة إلى هذا المثل وهو مهيض الجناح ضعيف الجانب. ليقوى فيه جانب العزيمة والأمل، وحتى لايقع فريسة للضعف الذي ينتابه من كل جانب.

ولا يتسع المقام هنا للحديث عن الآثار التي يتركها مثل هذا الأمر في النفس الإنسانية، وعلى النشاط والسلوك الإنساني، ولكن في وسعنا أن نقول على سبيل التطبيق أو المثال: لا يعقد باليتيم يتمه، ولا بالفقير فقره، ولا بالمصاب أو المفجوع حزنه وألمه. فإن رسول الله وخاتم النبيين ولد يتيماً، ونشأ فقيراً، وعاش زاهداً. ومات وليس على وجه الأرض إنسان سعى كسعيه، ونجح كنجاحه. فلم يقعد به اليتم، أو الفقر، أو ما لقيه في حياته من صنوف الأذى، وضروب الصد والعدوان، أو ما تجمع في شخصه الكريم من ضروب المحن والآلام. أن يدعو، وأن يجاهد، وأن يربيّ، وأن يعلّم، وأن ينشىء أمّة، ويبني حضارة. وأن يبلغ في حياته الشريفة المديدة ذروة الكمال الذي أعطاه الله تعالى للإنسان. حتى وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وإنّك لعلى خُلُق عظيم﴾.

وعلينا أن نستحضر على الدوام أن حياة النبي ﷺ بعد نشأته الأولى التي توفي فيها أبوه وهو في بطن أمه. والتى ماتت فيها أمه ولم يستكمل من عمره سبع سنين. ثم فقد جده عبد المطلب وله من العمر نحو ثمان سنين. والتي عمل فيها أو اضطر للعمل في سن مبكرة. علينا أن نستحضر أن حياته ﷺ بعد هذه النشأة القاسية كانت معرضاً للأقسى ما يمكن أن يصاب فيه إنسان، حتى إن لنا نقول: إن حياته ﷺ كان لحمتها الزهد والكفاف، وسُداها ضروب شتى من الآلام والشدائد!

**في الضنك والكفاف،** تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «ما شبع نبي الله ﷺ وأهله من خبر بُر ثلاثة أيام تباعاً حتى فارق الدنيا» قالت: «وكنّا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلّة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله نار» قلت: يا خالة! فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء. وكان رسول الله ﷺ «كثيراً ما يرى عاصباً بطنه من الجوع»..

وتقول السيدة عائشة: «لم يطو ثوبه ﷺ أبداً..».

ولم يكن هذا الكفاف الذي عاش فيه النبي ﷺ لأن مالاً لم يكن يأتيه على الدوام. ولكن لأنه آلى على نفسه أن يعيش هكذا. زاهداً فقيراً على الدوام. مثالاً لأصحاب الكفاف والفاقة إلى يوم الدين! حج رسول الله ﷺ على رحل رث وعليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم، فقال: اللهم اجعله حجاً مبروراً لا رياء فيه ولا سمعة، هذا وقد فتحت عليه الأرض وأهدى في حجه ذاك مائة بدنة - ناقة -» وقد جاءه مال من البحرين - نحو مائة ألف - فأمر بطرحه على نَطع في المسجد، فصلّى العصر، ثم انصرف إليه، فما قام من مجلسه حتى فرّقه عطاءً. وفي الصحيحين من حديث أبي ذر الغفاري أنه قال: «ما يسرّني أن عندي مثل أُحُد ذهباً تمضي عليّ ثالثة وعندي منه دينار، إلا شيئاً أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا؛ عن يمينه، وعن شماله، ومن خلفه» ثم قال: «إن الأكثرين هم المقلّون يوم القيامة، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، وقليلٌ ماهم».

وقد أخذ النبي ﷺ بهذا الزهد والكفاف أهله كذلك.. ولنذكر مع عاطفة الأبوة وحبه ﷺ لابنته فاطمة سيدة نساء العالمين أنه امتنع من زيارتها مرة لأنه وجد في يديها سوارين من فضة! حتى أرسلتهما إليه فباعهما بدرهمين ونصف، وتصدق بهما على الفقراء، وقد علّق مصطفى صادق الرافعي رحمه الله على هذه الحادثة بقوله " «يا بنت النبي العظيم! وأنت أيضاً لا يرضى لك أبوك حلية بدرهمين ونصف وإن في المسلمين فقراء لايملكون مثلها! أي رجل شعبي على الأرض كمحمد ﷺ فيه للأمة كلها غريزة الأب، وفيه على كل أحواله اليقين الذي لا يتحول، وفيه الطبيعة التامة التي يكون بها الحقيقي هو الحقيقي. يابنت النبي العظيم! إن زينة بدرهمين ونصف لاتكون زينة في رأي الحق إذا أمكن أن تكون صدقة بدرهمين ونصف! إن فيها حينئذ معنى غير معناها! فيها حق النفس غالباً على حق الجماعة، وفيها الإيمان بالمنفعة حاكماً على الإيمان بالخير، وفيها ما ليس بضروري قد جار على ماهو الضروري، وفيها خطأ الكمال، إن صح في حساب الحلال والحرام، لم يصح في حساب الثواب والرحمة».

وعلى ذكر **الأبوة والبنوة**.. هذا رسول الله ﷺ يمضى عليه نيف وعشرون عاماً لا تلد له في خلالها زوجة من زوجاته، ويموت في هذه الفترة جميع أولاده ماعدا فاطمة رضي الله عنها التي ماتت بعده بقليل. مات القاسم والطاهر طفلين، وماتت زينب

ورقية وأم كلثوم بعد أن تزوجن . . رسول الله يفجع بأولاده صغاراً وكباراً وهو صابر محتسب، أي عزاء للأب المفجوع أكبر من هذا العزاء، وأي أسوة ومثل أعلى وأفضل من هذا المثل؟

بل إن هنا في هذا العزاء بقية لمتأمل . . فقد ولد لرسول الله ﷺ بعد هذه السنوات الطوال ولده إبراهيم، وكان ذلك في ذي الحجة من السنة الثامنة، وربما كان رسول الله قد تخيّر له هذا الاسم على أمل أن يكون له أعقاب كأعقاب جدّه الأعلى عليه السلام. ثم مات إبراهيم بعد نحو من ثلاثة أشهر! مات الطفل الصغير وضاع الأمل الكبير، ورسول الله نيّف على الستين من عمره الشريف! فذرف الدمع لفقد ولده. وقال وقد غشيه الحزن والألم: «إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع. ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون»! وصادف أن كسفت الشمس في يوم موت إبراهيم في ربيع الأول من سنة تسع، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم! فقال رسول الله ﷺ الصادق الأمين، والصابر المحتسب - وشمس آماله في أعقاب ذكور قد كسفت حقاً! - «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلّوا وادعو الله» أي صورة من صور الصبر والاحتمال أبلغ من هذه الصورة؟ وأي مثل أعلى من هذا المثل؟

ثم هذا رسول الله ﷺ يتهم في عرضه وفي أحب نسائه إليه. وتلفظ المدينة بحديث الإفك، ويقف النبي أمام هذا الحديث المريب، فلا يقبله بدون بينه، ولا يرفضه بغير بيّنة. . على ما أصابه فيه من ألم ممض وأسى موجع! ويبقى في معاملته لزوجته على أكرم ما يكون الرجل، وأنبل ما يكون الزوج، حتى ينزل الله تعالى براءة السيدة عائشة - رضى الله عنها وعن أبيها - من فوق سبع سموات.

كل هذا، وأمور أخرى كثيرة تصيب النبي ﷺ في حياته. فأي أسوة حسنة أعلى من هذه الأسوة في جانب المحن والمصائب والآلام التي لا حيلة للإنسان في دفعها أو رفعها! إن علينا أن نهتدي بهدي رسول الله، وأن نقلده ونتأسى به في مجموعة صفاته النفسية وملكاته الأخرى من الشجاعة والكرم والصبر والوفاء. . ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وفي حدود ما يقدر عليه كلٌّ واحد منا من هذه الصفات والملكات!

ولكن الأسوة الرائعة التى ليس فوقها أسوة : الصبر على احتمال المكاره والمصائب التي لا حيلة للإنسان فيها، والتى تجمع منها في شخص النبي الكريم ما لو وُزِّع على عشرات (الأبطال) لقعد بهم! والتي قلّما يصيب الإنسان منها أكثر من نازلة أو مكروه، كاليتم، والفقر، والأذى، وفقد المعيل، وموت الولد، أو فقد القريب والنصير، أو الطعن في العرض. . ونحو ذلك من ضروب الآلام.

هل أقول في تلخيص هذه النقطة، وربطها بالنقطتين السابقتين : إن رسول الله وخاتم النبيين ارتقى إلى حيث هو قدوةً ومثلاً أعلى في كل ما يطمح إليه الأبطال والعظماء. مع عدم وجود الدواعي، أو مع قيام الموانع! أو في وقت لم تكن فيه الطريق ممهدة أو مفروشة بالورود كما يقال؟ اللهم نعم! . وإنها النبوة الخاتمة التي أراد الله تعالى لصاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام أن يكون الأسوة الحسنة لجميع الأصناف والطبقات إلى يوم الدين.

إذا ذكرنا سيرة رسول الله ﷺ في هذا الجانب، وذكرنا معها أن الضعفاء في الأرض هم الأكثرون، وأن قيام أمر الأمم بأعلامها ومفكريها وزعمائها منوط في الأعم الأغلب بالفقراء والمساكين لا بالأغنياء والمترفين. أدركنا أيّ مد نفسيّ تعطيه سيرة النبي لأمته، وأي سلطان قاهر مذل ترفعه عن أعناقها، واستطعنا أن نفسر طرفاً من استعصاء هذه الأمة على المحو والزوال! إنها سيرة النبي العظيم ترتفع أمام أعين المسلمين سامقة حية تعزيهم وتصبّرهم، وتمسح عنهم جراحهم، وتضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم! إنها السيرة الشريفة. نبراس الأمة في كل حين. ولكنها أفعل ماتكون وألزم ماتكون حين تصيب هذه الأمة الآلام، وتكثر عليها الجراح. . وتتداعى عليها الأمم، وتتكالب عليها الشعوب!

ومرة أخرى : إن الحديث حول هذه النقطة يطول، وبحسبنا هذه الكلمات، وبحسبنا أن نقول في ختامها وختام هذه الفقرة : كم من طفل رُبيّ في بلاد العروبة والإسلام لم يكن يحسّ بما يحسّ به سائر الأطفال من متعة المأكل والملبس والمسكن، لفقر أو يتم أو ظلم. . ولكن الألم والحسرة لم تتسرب إلى نفسه لتطفىء فيها جذوة الأمل، أو روح الذكاء والعمل، لأنه يمضي حين يمضي من درس معلّمه وقد وَعَى

صورة النبي اليتيم، وصورة النبي الذي لم يشبع يومين متتاليين. فتتقد في نفسه جذوة الكفاح والأمل وهو يردد في خاطره قول الله تبارك وتعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾!

## ٢ - الفصاحة النبوية:

أما فصاحته ﷺ، ونعني بها في هذا السياق: البيان، أو بإطلاقها العام الذي يقع وصفاً للسان والكلام جميعاً[٢٧]، فقد كانت عنده ملكة من ملكات الخلق والتكوين، ووضعاً من أوضاع النسب والنشأة، ووجهاً من وجوه الأداء والتبليغ في رسالة كانت معجزتها «بياناً» يُتلى لا آيةً خارجة عن السنن الكونية تخضع لها الرقاب!

### ١ - الخلق والتكوين:

لايتسع المقام لاستعراض صفات النبي ﷺ النفسية والظاهرة لبيان ما يمكن أن يخرج من هذه الصفات من الفصاحة النادرة أو غير المعهودة في لسان العرب. وفي حين نكتفي من ذلك بطرف أو أدنى طرف من هذه الصفات؛ فإننا نشير إلى أن الأمر عندنا لاينطلق من المنهج السيكوفسيولوجي، أو لا يصل إليه. وهو المنهج الذي يعتمد على استشفاف الشخصية - بعامة - من التركيب البدني وما يتبعه من قضايا لاتزال محور دراسة علماء النفس. ونحن لا نعدو في ذلك ما أومأ إليه أو عقّب به بعض كتاب السيرة وعلماء البلاغة، مع العلم بأن جمهور كتّاب السيرة لم يفتهم الحديث عن سلامة أجساد جميع الأنبياء من العيوب «حتى صلحت لحلول الأنفس الكاملة»[٢٨] وعن كون نبينا محمد ﷺ «أصح الأنبياء مزاجاً وأكملهم جسداً»[٢٨] عن أنس رضي الله عنه: «ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيّنا ﷺ أحسنهم وجهاً وصوتاً.».

ونستعرض فيما يلي طرفاً من صفاته ﷺ[٢٩] لنرى حين نتملاه جيداً، ما يمكن أن تومىء إليه هذه الصفات - الجسدية.. والنفسية - من تلك الفصاحة النادرة!

---

(٢٧) يقال: : رجل فصيح: يُحْسن البيان.. وكلام فصيح: سليم واضح يدرك السمع حسنه، والعقل دقته. ولسان فصيح: طَلَق يعين صاحبه على إجادة التعبير. المعجم الوسيط ٢/ ٦٩٠.

(٢٨) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون للحلبي ٣/ ٤٣٤.

(٢٩) انظر شرح عيون الأثر لابن سيد الناس ٢/ ٣٢٣ وانظر عنده الفصل الذي عقده لتفسير غريب هذا الحديث ومشكله، ص ٣٢٦ فيما بعدها.

«كان رسول الله فخماً مُفخّماً، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر (٣٠)، أطول من المربوع، وأقصر من المشذّب (٣١)، عظيم الهامة، رجْل الشعْر إن انفرقت عقيقته فَرَق، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفّره (٣٢). أزهر اللون، واسع الجبين، أزجّ الحواجب سوابغَ من غير قَرَن (٣٣)، بينهما عرْقٌ يدرّه الغضب، أقنى العرنين (٣٤)، له نورٌ يعلوه، ويحسبه من لم يتأمله أشم (٣٥)، كثّ اللحية، أدعجَ، سهل الخدّين، ضليع الفم، أشنب، مُفلّج الأسنان (٣٦)، بادناً متماسكاً، سواء البطن والصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس (٣٧)، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين (٣٨)، سائل الأطراف (٣٩)، خُمصان الأخمصين (٤٠)، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء.

«إذا زال زال تقلّعاً، ويخطو تكفّؤاً، ويمشي هوناً (٤١)، ذريعَ المشية: إذا مشى كأنما ينحط من صبَب (٤٢)، وإذا التفت التفت جميعاً (٤٣)، خافض الطَرف، نظره إلى

---

(٣٠) قال جابر بن سمرة: رأيته في ليلة إضحيان فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر - وعليه حلة حمراء - فإذا هو أحسن عندي من القمر (الترمذي في الشمائل ص ٢ وانظر مشكاة المصابيح ٢/ ٥١٨) وقال كعب بن مالك: كان إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر (البخاري ١/ ٥٠٢) وعرق مرة وهو عند عائشة فجعلت تبرق أسارير وجهه، فتمثلت له بقول أبي كبير الهذلي:

وإذا نظرت إلى أسرّة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل!

(٣١) المربوع والربعة: الرجل بين الطول والقصر. والمشذّب: البائن الطول في نحافة. وهذا نحو ما قاله سيدنا علي رضى الله عنه في صفته ﷺ: ولم يكن بالطويل الممغط، ولا القصير المتردد، وكان ربعة من القوم» ابن هشام ١/ ٤٠١.

(٣٢) الشعر الرّجْل: الذي كأنه مُشّط فتكسر قليلاً ليس بسبط ولا جعد. والعقيقة: شعر الرأس، أراد: إن انفرقت من ذات نفسها فرقها، وإلا تركها معقوصة. ويروي: عقيصته.

(٣٣) الحاجب الأزج: المقوس الطويل الوافر الشعر، والقرن: اتصال شعر الحاجبين.

(٣٤) الأقني: السائل الأنف المرتفع وسطه.

(٣٥) الأشم: الطويل قصبة الأنف. والأدعج: الشديد السواد الحدقة.

(٣٦) الضليع: الواسع. والشنب: رونق الأسنان وماؤها، والفَلَج: فرق بين الثنايا.

(٣٧) الكراديس: رؤوس العظام.

(٣٨) أي لحيمهما.

(٣٩) أي طويل الأصابع.

(٤٠) أي متجافي أخمص القدم، وهو الموضع الذي لا تناله الأرض من وسط القدم. ومعنى مسيح القدمين: أملسهما، ولهذا قال: ينبو عنهما الماء.

(٤١) التقلّع: رفع الرجل بقوة. والتكفّؤ: الميل إلى سنن المشي وقصده. والهون: الرفق والوقار.

(٤٢) أي من علو. والذريع: الواسع الخطو.

(٤٣) أي لا يلوي بعض جسمه حين يلتفت، بل ينفتل بجميع جسمه، وهي حالة تكون من بلوغ القوة منتهاها.

الأرض أطول من نظره إلى السماء، جُلُّ نظره الملاحظة، يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام».

وجاء في منطقه ﷺ، وسائر أوصافه وصفاته أنه كان «متواصل الأحزان، دائم الفكرة ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه (٤٤)، ويتكلم بجوامع الكلم، فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير. دمثاً ليس بالجافي ولا المهين (٤٥)، يعظّم النعمة وإن دقّت، لا يذم شيئاً.. ولا يُقام لغضبه إذا تُعرّض للحق بشيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، فإذا غضب لله أو إذا تعرض لحرماته احمر وجهه حتى كأنما فقىء في وجنتيه حب الرمان!

«إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلّبها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غضّ طرفه، جُلّ ضحكه التبسم، ويفترّ عن مثل حب الغمام (٤٦).

وقد تحدث الرافعي مطولاً عن دلالة هذه الصفات على الكمال المحمدي - الإنساني - بوجه عام، وعن أثرها في البلاغة النبوية، أو في بيان هذا السبب من أسباب فصاحته عليه الصلاة والسلام بوجه خاص، فقال: «وإذا رجعت النظر في تلك الصفات الكريمة، واعتبرتها بآثارها ومعانيها، رأيت كيف يكون الأساس الذي تُبنى عليه فراسة الكمال في نوع الإنسان؛ من دلالة الظاهر على الباطن، وتحصيل الحقيقة النفسية التي هي بطبيعتها روح الإنسان في أعماله، أو أثرُ هذه الروح، أو بقية هذا الأثر».

ثم قال: «فإذا تأمّلتها متّسقة، وتمثّلتها قائمة في جملة النفس، وأنعمت على تأمّل صورها الكلامية التي تبعث الكلام وتزنه وتنظمه وتعطيه الأسلوب، وتجمّله بالرأي، وتزيّنه بالمعنى؛ فإنك ستجد من ذلك أبلغ ما أنت واجده من الأساليب

---

(٤٤) أي لا يقتصر في كلامه على تحريك الشفتين، بل يستعمل جميع فمه للتكلم، قال الرافعي: «وذلك من قوة المنطق والصوت والمعني، وحضور الذهن واجتماعه» تاريخ أداب العرب ٢/ ٢٩٠.

(٤٥) الدماثة: سهولة الخلق، والجفاء: غلظه.

(٤٦) حب الغمام: البرد. وانظر أيضاً حول هذا الموضوع: فتح الباري لابن حجر ٦/ ٤٤٠ والشفاء للقاضي عياض ١/ ٣٨ ومشكاة المصابيح ١/ ٢٢ وجامع الترمذي ٢/ ٣٥.

العصبية في هذه اللغة وأشدها وأحكمها، مما لا يضطرب به الضعف، ولا تزايله الحكمة، ولا تخذله الرويّة، ولا يباينه الصواب، بل يخرج رصيناً غير متهافت، متسقاً غير متفاوت، لا يغلب على النفس التي خرج منها، بل تغلب عليه، ولا تسترسل به المخيلة بل يضبطه العقل. ولا يتوثب به الهاجس بل يحكمه الرأي. ولا يتدافع من جهاته، ولا يتعارض من جوانبه، بل تراه على استواء واحد في شدّة وقوّة واندماج وتوثيق»(٤٧).

لقد كانت هذه الفصاحة إذن هبة من هبات الخلق والتكوين أُعدّ بها ﷺ - فيما أعدّه الله - ليكون رسولاً مبلّغاً. فإذا أضفنا إلى هذه الصفات ما قالته السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ «ما كان يسرد كسردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام بيّن فصل، يحفظه من جلس إليه» وفي رواية: «كان - صلى الله عليه وسلم - يحدّث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه» أدركنا مبلغ تلك الهبة، ومدى تمكنها من الطبع، وصدور النبي عنها في جميع المواقف والأحوال.

وفي الوقت الذي نزّه الله تعالى منطق نبيّه عليه الصلاة والسلم عن عيوب النطق الخلْقية فإنه عليه السلام كره من هذه العيوب ما كان مُتكلّفاً أيضاً في سبيل إصابة طرف من الفصاحة! ولهذا كره رسول الله تلك الدلائل المصطنعة على الفصاحة، فذم المتشدّقين والمتفيهقين، والذي يتخلل بلسانه تخلّل البقرة بلسانها! روى جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن من أبغضكم إليّ وأبعدكم منّي يوم القيامة الثرثارون، والمتشدّقون والمتفيهقون»(٤٨) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يُبغض البليغ من الرجال الذي يخلّل بلسانه كما تتخلّل البقرة!»(٤٩).

---

(٤٧) تاريخ آداب العرب ٢/ ٢٩١-٢٩٢.

(٤٨) رواه الترمذي وقال: حديث حسن. والثرثار: كثير الكلام تكلفاً. والمتشدق: المتطاول على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصحاً لكلامه. والمتفهيق: أصله من الفهق، وهو الامتلاء، يقال: فهق الغدير: إذا كثر ماؤه وزاد. والمراد به في الحديث: الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه ويُغرب به تكبراً وارتفاعاً وإظهاراً للفضيلة على غيره.

(٤٩) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن، وقال ابن الأثير: هو الذي يتشدق في الكلام ويفخّم به لسانه ويلفّه كما تلفّ البقرة الكلأ بلسانها لفاً.

أما حسن **الصوت** الذي وُصف به رسول الله، والذي جعله بعضهم تمام فصاحته وحليتها.. فقد يكون له شأن أهمّ منه في هذا الباب؛ لأنه لايوجد فضلاً في الفصاحة تمتاز به عن غيرها؛ يقول القاضي عبد الجبار: «فأما حسن النغم، وعذوبة القول، فمما يزيد الكلام حسناً على السمع، لا أنه يوجد فضلاً في الفصاحة، لأن الذي تتبين به المزية في ذلك يحصل فيه وفي حكايته على سواء، ويحصل في المكتوب منه على حسب حصوله في المسموع»(٥٠).

**٢ - النسب والنشأة:**

أما النسب والنشأة وأثرهما في الفصاحة النبوية فأمر لا يحتاج إلى بيان، وقد قال ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار» فهو «المصطفى» من قوم كلهم سادة قادة في الأريحية والكرم، واللسان والبيان، ولم يعلم أن واحداً من آبائه - ﷺ - كان عيياً أو منقوص البيان. بل إن النبي قد أطلق القول: «أنا أفصح العرب.» وأرسله في العرب جميعاً! «والفصاحة أكبر أمرهم، والكلام سيد عملهم، فما دخلتهم له حمية، ولا تعاظمهم، ولا ردوه، ولا غضوا منه، ولا وجدوا إلى نقضه سبيلا، ولا أصابوا للتهمة عليه طريقا. ولو كان فيهم أفصح منه لعارضوه به، ولأقاموه في وزنه، ثم لجعلوا من ذلك سبباً لنقض دعوته والإنكار عليه، غير أنهم عرفوا منه الفصاحة على أتم وجوهها وأشرف مذاهبها، ورأوا له في أسبابها ما ليس لهم ولا يتعلقون به ولا يطيقونه»(٥١).

ولايمكن هنا إغفال أثر التربية والنشأة، تضاف إلى ماكان للنبي الكريم من سمو الفطرة وقوتها، ومن النسب إلى بني هاشم. بل لعل أثر هذه النشأة أن يكون أوضح لدى كثير من الدارسين.. فقد تقلب النبي في نشأته في أفصح القبائل، وأخلصها منطقاً، وأعذبها بياناً، فكان أخواله من بنى زُهرة، ورضاعه في سعد بن بكر، ومُتزوجه في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو - وهم الأوس والخزرج من

(٥٠) إعجاز القرآن للقاضي عبد الجبار (من كتابه المغني في أبواب التوحيد والعدل)، ص ١٩٩.
(٥١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢/ ٢٨٥-٢٨٦.

الأنصار - «لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة، ولقد كان في قريش وبني سعد ما يقوم بالعرب جملة، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر» يشير بذلك كما هو واضح إلى اجتماع أسباب هذه الفصاحة له، في النسب القرشي، والنشأة السعدية عليه الصلاة والسلام. والرواة جميعاً على أن بني سعد بن بكر خُصّوا من بين قبائل العرب بالفصاحة وحسن البيان(٥٢).

٣ - **الأداء والتبليغ:**

وأخيراً، فقد كانت فصاحته ﷺ والبلاغة النبوية بوجه عام، وجهاً من وجوه الأداء والتبليغ في «رسالة» جاءت معجزتها «بياناً» يُتلى لا آية كونية تخضع لها الرقاب! فكان من تمام الصورة أن يكون «الرسول» أفصح الناس لساناً وأبلغهم بياناً؛ فتتسق بذلك صورة الفصاحة والبيان، والبلاغة والإبلاغ.

لم تكن معجزة النبي الكبرى - القرآن الكريم - أمراً ناقضاً للعادة، مخالفاً للمألوف في سنن الكون وسنن الطبيعة، على نحو ما كانت عليه معجزات الأنبياء السابقين - كعدم احراق النار أو كقلب العصا حيّة - فبالإضافة إلى أن المعجزة على هذا النحو ترتبط بالقوم الذين بعث النبي بن ظهرانيهم، من جهة. وأنها تعني في الحقيقة التسليم أو الاضطرار إلى التسليم، وقد لا تعني القناعة العقلية، من جهة أخرى(٥٣)، فإن السبب الذي من أجله كانت معجزة النبي الكريم كلاماً يتلى، وبياناً معجزاً لم يستطع أحد أن يأتى بمثله: أن الكلام والبيان هو ما امتاز به الإنسان، فجاءت معجزة محمد ﷺ، «بيانية» للإشارة إلى أن هذه الرسالة هي رسالة الإنسان حيث كان الإنسان، وفي أي زمان وجد!. بل جُعل دليل هذه المعجزة «الناطقة» شيئاً زائداً في هذا البيان، بلغ حدّ التحدي أن يأتي أحد بآية منه، فلم يستطع ذلك آحد، ولن يستطيع ذلك أحد. إشارة أيضاً إلى فضيلة «البيان» التي يتفاضل بها «الناطقون». والتي يمكن عدها زيادة في إنسانية الإنسان؛ بوصف النطق أخص خصائص الإنسان، حتى قيل في تعريفه: إنه حيوان ناطق!

---

(٥٢) المصدر السابق.

(٥٣) انظر تفضيلاً وافياً في كتابنا: في الفكر والثقافة الإسلامية، ص ١٤٥ فما بعدها طبع المكتب الإسلامي ١٩٩١.

ولعل في ابتداء نزول القرآن الكريم بقوله تعالى «اقرأ» ما يشير إلى هذه الطبيعة الإنسانية لآخر رسالات السماء إلى الأرض : ﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق . خلق الإنسان من علَق . اقرأ وربُّك الأكرم . الذي علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم﴾ بل لعل في تخصيص الإنسان بالبيان في قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿الرحمن . علّم القرآن . خلق الإنسان . علّمه البيان﴾ ما يؤكد جميع هذه المعاني، ويوحي بها كذلك .

فبالبيان يمتاز الإنسان من سائر المخلوقات، وبميزة البيان تمتاز رسالة الإسلام، وإن شئت قلت : رسالة الإنسان، من سائر الرسالات .

ولم يكن البيان بمعناه الأدق من «النطق» كما توحي بذلك بعض الآيات القرآنية الأخرى، وقفاً على لغة من اللغات، أو أمة من الأمم . . ولكن اختيار لغة العرب لينزل بها القرآن، وليُحمل بها إلى العالم رسالة الإنسان، يشير إلى فضيلة بيانية جامعة امتاز بها اللسان العربي على كل لسان!

ولهذا، فإن النظر العلمي - فيما نرى - يقتضينا **ضرورة التفريق بين كون هذه المعجزة بيانية، وبين كون هذا البيان جاء بلغة العرب** . والذي نزعمه هنا هو أن هذا التفريق غاب عن علمائنا عبر عصور التاريخ المختلفة، حين أصر علماء البلاغة والتفسير وعلوم القرآن والعقيدة، وغيرهم على ربط قضية إعجاز القرآن أو الإعجاز البياني الذي وقع به التحدي - كما هو معلوم - بكون العرب ذوي فصاحة وبيان، وأن البلاغة أنفس بضاعتهم، وأعظم ما برعوا فيه، كما جاء عيسى بن مريم عليه السلام بمعجزة إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص في قوم برعوا في الطب، وكما جاء موسى عليه السلام من قبل بمعجزة قلب العصا حيّة في قوم كانت بضاعتهم السحر! وقد يقال إن هذا كان زيادة في التحدي، من وجه . ولأن هؤلاء الأقوام جيمعاً أولى من يعلم - من وجه آخر - انفصال ما هم عليه، من البيان والطب والسحر، من جنس ما جاء به رسولهم . فتسرع إلى الإيمان قلوبهم . أو يكونوا أقرب إلى الإيمان والتصديق على أقل تقدير!

وعندنا أن هذا الكلام المتداول عبر العصور، ونحوه كثير، فيه دلالة على أن القرآن معجزة العرب وحدهم . بل إن الشبه قد وصلت ببعض المحدثين - على فساد بينّ وهزال شديد - إلى حد قصر الإسلام على العرب وحدهم، والزعم بأن الرسالة التي نزلت فيهم إنما كانت لهم !! ونحن نتولى الآن صياغة هذه المسألة من جميع

جوانبها في بحث آخر، وكل ما نود التأكيد عليه في هذا السياق : ضرورة التفريق - الحاسم - بين هاتين النقطتين، أي بين كون معجزة النبي الكبرى بيانية، وبين كون هذا البيان جاء بلغة العرب. كما تم التفريق عبر العصور بين كون الرسالة الإسلامية نزلت في العرب، وكون هذه الرسالة إنسانية عامة، وليست خاصة بالعرب وحدهم!

لقد كانت معجزة النبي الكبري «بيانية» لأنها إنسانية؛ وليس لأنها نزلت في قوم بلغاء أو بضاعتهم البيان. أما لماذا جاء هذا البيان بلسان العرب فهذه مسألة أخرى يجب دراستها وحدها، أو في سياق الأسباب التي اختير من أجلها العرب لحمل رسالة الإسلام. إن علينا أن نبحث عن الفضيلة البيانية الجامعة التى امتاز بها اللسان العربي على كل لسان، والتي كانت السبب في اختيار هذا اللسان لتنزل به إلى كل «الناطقين» أو إلى جميع بني آدم، آخر رسالات السماء إلى الأرض، في الوقت الذي لا يتصور فيه أحد - لأسباب كثيرة - أن ينزل القرآن الكريم، من أجل تأكيد عمومه وخلود رسالته، بجميع لغات الأرض! ما كان منها - وقت التنزيل - وما سيكون إلى يوم الدين!

وبعد، أليس من لوازم هذه الصورة البيانية في هذه الرسالة أن يكون رسول الله أفصح العرب وأبلغ من نطق بالضاد. . وأن يكون في الذروة العليا من البيان الإنساني، فيعطيه الله تعالى جوامع الكلم ويختصر له الكلام اختصاراً؟ خصوصاً إذا ذكرنا أن مهمة بيان التنزيل، أو شرح هذه المعجزة البيانية قد أنيطت به عليه الصلاة والسلام بنصّ القرآن الكريم ذاته؛ قال تعالى : ﴿وأنزلنا إليك الذّكر لتبينّ للناس ما نُزّل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ الآية ٤٤ من سورة النحل : ١٦ وقال تعالى : ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ الآية ١٨ من سورة العنكبوت.

وهكذا، كان رسول الله ﷺ بهذه الأسباب أفصح العرب وأبلغ من نطق بالضاد!

## ثانياً : سمات البلاغة النبوية :

سمات البلاغة النبوية كثيرة. . وقد يقف الأديب أو الكاتب عند سمة واحدة من هذه السمات، ويشير إلى سائرها، أو إلى طرف آخر منها. . وربما تداخل القول في هذه السمات أو الملامح عنده أو عند كتّاب آخرين. وفي الوقت الذي نقدر أن هناك

سمة أساسية أو غالبة، هي السمة الأهم في نسق هذه البلاغة، وأن الملامح الأخرى يمكن ردّها إليها أو تخريجها عليها؛ فإننا آثرنا هنا أن نعرض لطرف من هذه السمات العامة على النحو الذي أشار إليه كل من الجاحظ والرافعي والعقاد، بوصف هؤلاء الأدباء والنقاد أبرز المتعرضين لهذا الموضوع من القدماء والمحدثين.

**١ - الجاحظ :**

سبقت الإشارة إلى كلمة يونس بن حبيب : «ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ». نقل الجاحظ هذه الكلمة دلالةً واستشهاداً في معرض حديثه عن بعض فنون الكلام عند رسول الله؛ قال الجاحظ في ذلك الفن من كلامه عليه الصلاة والسلام : «وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثرت معانيه، وجَلّ عن الصنعة ونُزّه عن التكلف. وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد (وما أنا من المتكلّفين)(٥٤) فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعيب(٥٥)، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقيّ؛ فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة، وشُيّد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق.

«وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبّة وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حُسن الإفهام وقلّة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته وقلّة حاجة السامع إلى معاودته.

«لم تسقط له كلمة، ولا زلّت به قدم، ولا بارت له حُجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب. بل يَبُذُّ الخُطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج(٥٦) إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز(٥٧)، ولا يُبطىء ولا يعجل، ولا يُسهب ولا يحْصر»(٥٨).

---

(٥٤) الآية ٨٦ من سورة ص، وتلاوتها : «قل ماأسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين».

(٥٥) التقعيب كالتعقير : أن يتكلم بأقصى قعر فمه!

(٥٦) الفلج : الفوز والظفر.

(٥٧) الهمز : العيب في الغيبة، واللمز : العيب في الحضرة.

(٥٨) حصر، من باب تعب : عيّ في كلامه.

ويضيف الجاحظ : «ثم لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدلَ وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسنَ موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنىً، ولا أبين عن فحوى من كلامه ﷺ»(٥٩).

هذا الوصف الجامع الدقيق للون، أو فن بحسب عبارة الجاحظ، من كلامه ﷺ ربما تضمن أكثر من سمة من سمات البلاغة النبوية والكلام النبوي. وإذا تجاوزنا حديث الجاحظ عن فصاحة الأداء النبوي، ووصفه للنبي المبلّغ - مما أشرنا إليه في الفقرة السابقة - بالإضافة إلى وصفه الصادق المؤثر «لأخلاقيات» البلاغ النبوي وحجج النبوة؛ فإن الجاحظ رحمه الله تحدث عن سمتين بارزتين : **الأولى** : قلة الحروف والكلمات وكثرة المعاني، وهي السمة المعبر عنها بجوامع الكلم. **والسمة الثانية** : تنزه البلاغة النبوية عن الصنعة والتكلّف.

وإذا كان الجاحظ يرى في هاتين السمتين، أو في جميع ما ذكره في هذا النص، «فناً» واحداً من ضروب الكلام النبوي فأنه يرى فيما يبدو أن البلاغة النبوية إذا خلت عن الصنعة والتكلف. وجاءت مع ذلك بجوامع الكلم، أو بالكلمات القليلة تحمل الكثير من المعاني؛ فذلك هو الفن الذي يميز البيان النبوي. وتلك هي سمة السمات في هذا البيان وآية الآيات!

هذا، في الوقت الذي تحدث إمام البيان عن «فن» آخر من كلام رسول الله ﷺ، قال الجاحظ في وصفه إنه «مما لم يسبقه إليه عربي، ولا شاركه فيه عجمي، ولم يُدّعَ لأحد، ولا ادّعاه أحد. مما صار مستعملاً ومثلاً سائراً». وربما أمكننا القول : إن هذا النوع يمكن عدّه شرحاً - مفرداً - لسمة جوامع الكلم، لأن أحق الكلام بالسيرورة وضرب المثل هو هذا الذي قلّ عدد حروفه وكثرت معانيه! كما يمكن عده فناً، أو سمة أخرى لمن يرى ذلك، وإن كنا نرى أن الحديث عن هذا الفن يأتي في السياق الذي ذكرناه قبل قليل تعقيباً على أسباب البلاغة النبوية بوجه عام، وعلى مسألة «الأداء والتبليغ» بوجه خاص. علماً بأن الرافعي رحمه الله - الذي نظر في هذا الكلام للجاحظ - آثر أن يربط هذا السبق، وعدم المشاركة والادعاء، بعدم الصنعة والتكلف، وبمكانة النبي بوصفه أفصح العرب، وبمضامين الكلام النبوي أو

---

(٥٩) البيان والتبيين ٢/ ١٧-١٨ تحقيق عبد السلام هارون رحمه الله.

بالمعاني التي وصفها بقوله : «انها إلهام النبوة، ونتاج الحكمة، وغاية العقل، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام وليس فوقه مقدارٌ إنساني من البلاغة والتسديد وبراعة القصد» وربما كان السبب في ذلك يعود إلى أن سمة «جوامع الكلم» تعد روح البلاغة النبوية وسمتها الغالبة أو المطردة . . والتي لاتحتاج في هذا الموقف إلى بيان!

ونكتفي هنا، بعد هذا التمييز، بطرف من الشواهد الكثيرة التي أوردها الجاحظ من الكلام النبوي، كدليل على جملة ما ذهب إليه، والتي أقسم بين يديها أنه لم يتكلّف للنبي امتداحاً أو تزييناً ليس عنده أو لا يبلغه قدره! إشارةً إلى أنه في وصفه السابق للكلام النبوي، وفي اختياره اللاحق منه لم يخلط بين مقام النبوة - الذي يتشرف الجاحظ بمدحه - وبين اعتبارات النقد ومقاييس البلاغة؛ قال رحمه الله :

«ولعلّ بعض من لم يتسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلم، يظن أنّا قد تكلّفنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيين والتجويد، ما ليس عنده، ولا يبلغه قدره! كلاّ والذي حرّم التزيّد على العلماء، وقبّح التكلّف عند الحكماء، وبهرج الكذابين عند الفقهاء! ما يظن هذا إلا من ضل سعيه!»(٦٠).

فمن كلامه ﷺ، حين ذكر الأنصار، فقال : «أما والله ما علمتكم إلا لتقلّون عند الطمع، وتكثرون عند الفزع» وقال : «الناس كلّهم سواء كأسنان المشط»(٦١).

وقال عليه السلام : «اليَدُ العُليا خير من اليد السُّفلى، وابدأ بمن تعول»(٦٢).

وقال : «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم»(٦٣).

---

(٦٠) المصدر السابق، ص ١٨.

(٦١) قال الشاعر : سواءٌ كأسنان الحمار فلا ترى لذي شيبة منهم على ناشىء فضلا

وقال آخر : شبابهم وشيبهم سواءٌ فهم في اللؤم أسنان الحمار!

قال الجاحظ : «وإذا حصّلت تشبيه الشاعر وحقيقته، وتشبيه النبي ﷺ وحقيقته، عرفت فضْل ما بين الكلامين».

(٦٢) وسائر الحديث : «. . وخير الصدقة عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله» أخرجه الشيخان من حديث حكيم بن حزام.

(٦٣) من حديث أخرجه أبو داود وابن ماجه. وقد شبه النبي المسلمين في التضافر والتآزر والاجتماع باليد الواحدة التي لا يخالف بعضها بعضاً في البسط والقبض، والرفع والخفض، والإبرام والنقض - كما يقول الشريف الرضي - قال الجاحظ في هذا الحديث : «فتفهّم رحمك الله قلّة حروفه، وكثرة معانيه».

وقال : «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»[٦٤].

وقال : «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»[٦٥].

وقال ﷺ : «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً! ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوبُ الله على من تاب»[٦٦].

وقال : «ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا في طلب العلم»[٦٧].

وقال : «يقول ابن آدم : مالي مالي! وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيته، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت»[٦٨].

**٢ - الرافعي :**

وتحدث الرافعي مطولاً، وبأسلوبه المتميز أو المعهود، عن سمات البلاغة النبوية من ناحيتى اللغة والبيان، أو من «جهة الصناعتين اللغوية والبيانية» بحسب عبارة الرافعي. وبالرغم من محاولة الفصل هذه بين هاتين الجهتين : فإن كلام الرافعي - الذي يومىء إلى طرف من كلام الجاحظ السابق، ويدل عليه - يمكن عدّه «مدخلاً» إلى نقطة أوسمة ثالثة تضاف إلى ما ذكره الجاحظ في النقطتين السابقتين. كما يمكن عدّه في الوقت نفسه دليلاً على السمة الرئيسة أو الأساس للبلاغة النبوية، وهي سمة الإبلاغ التي سنتحدث عنها في الفقرة التالية عند الحديث عن آراء العقاد رحمه الله.

قال الرافعي في بيان الجهة الأولى : إنك إذا نظرت إلى الكلام النبوي من جهة **الصناعة اللغوية** «رأيته مسدّد اللفظ، محكم الوضع، جزل التركيب، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات، فخم الجملة، واضح الصلة بين اللفظ ومعناه، واللفظ وضريبه في التأليف والنسق، ثم لاترى فيه حرفاً مضطرباً، ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه، ولا كلمةً غيرُها أتم منها أداءً للمعنى، وتأتياً لسرّه في الاستعمال».

---

(٦٤) رواية البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما : «إنما الناس كالإبل المائة لاتكاد تجد فيها راحلة» وفي رواية مسلم : «تجدون الناس كإبل مائة لايجد الرجل فيها راحلة».

(٦٥) رواه الشيخان وغيرهما.

(٦٦) رواه الشيخان من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦٧) رواه البيهقي في شعب الإيمان، وفيه : «التملق ولا الحسد».

(٦٨) أخرجه مسلم والترمذي والنسائي والإمام أحمد.

وإذا نظرت إليـه من جهـة **الصناعة البيانية** رأيته «حسن المعـرض، بينّ الجملـة، واضح التفصيل، ظاهـر الحدود، جيـد الـرصف، متمكن المعنى، واسع الحيلـة في تصريفه، بديـع الإشـارة، غريـب اللمحـة، ناصـع البيـان؛ ثم لا تـرى فيه إحالـة ولا استكراهاً، ولا ترى اضطراباً ولا خطلاً، ولا استعانةً من عجز، ولا توسعـاً من ضيق، ولا ضعفاً في وجه من الوجوه»(٦٩)

الكلام النبوي الذي هذه صفته ونسق بلاغته، والذي كان موضـوعـه أو ميـدانـه «حكمة» لا تدانيها حكمة، لأنها «حكمة النبـوة، وتبصير الـوحي، وتأديب الله» كما يقول الرافعي. يقول: قد سلمت له هذه الجهات الثلاث: اللغة والبيان والحكمة، مرة واحدة!. ثم جاءت على أتمها وأكملهـا بحيث لم تُدخل واحـدةٌ منهـا الضيم على أختيها بوجه من الوجوه.

وعلينا قبل أن نمضي في التعليق على هذا الوصف الذي قدمـه الـرافعي رحمه الله، أن نشير إلى هذه الجهة الثالثة - الحكمة - التي تحدث عنهـا الـرافعي في سيـاق آخـر، والتي أوضحها من خلال حديثه عن «موضوع» الكلام النبوي، و «ميدان» البـلاغـة النبوية. إن موضـوع بـلاغـة الأدبـاء في الأعم الأغلب: المرأة والطبيعـة، أو الحب والجمال! والمنقول عن رسول الله في هذه الأغراض كلمات أو إشارات بيانية جامعـة، لم تأت في معرض العاطفة أو الخيال. أو لأن حالة من تلك الحالات الشعـوريـة التي تلم بالشاعر أو الفنان - التجربة - ألّمت برسول الله ﷺ، وإنما جـاءت تلك الكلمات النادرة في معرض الحديث عن الخير والشر، والحلال والحرام. ومـا يكـون من شأن المؤمن أو يقوله أو يفعله. وما لايكون! إن محمد بن عبـد الله صلـوات الله وسـلامـه عليه صاحب رسالة، وميدان بلاغته الفريدة - على اتساعـه - محدود «بطبيعـة» هـذه الرسالـة. وكـلامـه - كما يقـول الـرافعي - «يجري مجرى عملـه، كلـه دين وتقـوى وتعليم، وكله روحانية وقوة وحياة» قلت: ولمن شاء أن يدرس هذه النقطة في ضوء أعلى درجات الالتزام، فليعد عليها بالنظر والبحث.

(٦٩) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢/ ٣٢٥.

تحدث النبي - على سبيل المثال - عن «الكاسيات العاريات» في حديث : صنفان من أمتي لم أرهما». وقال في شأن النساء : «ارفق يا أنجشه ويحك بالقوارير!» وقال : «ومنهن ربيعٌ مربع». قال الشريف الرضي : والمراد تشبيه المرأة الحسناء المونقة بالربيع المزهر، والروض المنوّر. وكان للطبيعة أثر في كلام النبي ﷺ في مثل قوله، وقد سأله رجل : متى يصليّ العشاء الآخرة : «إذا ملأ الليل بطن كل واد» وقوله : «ليدخلنّ هذا الدين على ما دخل عليه الليل» وقوله : «إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربّه في الزرع! فقال له : ألست فيما شئت؟ قال : بلى، ولكني أحب أن أزرع، قال : فبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال»..

ولكن هذه الأحاديث وأمثالها لم يرد منها استجلاب العبارة، ولا صناعة الخيال، ولكن أريد منها التمثيل الذي يوضح الحقيقة، ويصل بها من طريق الكون المفتوح إلى عالم النفس والإرادة، والوجدان؛ يقول الرافعي : «الكون في نظر النبي ﷺ آية الحكمة لا آية الفن، ومنظر المستيقن لامنظر المتخيّل، ومادة العبودية للّه لا مادة التأله للإنسان» (٧٠).

وفحوى ذلك أن «الموضوعات» التي تطل من خلالها البلاغة النبوية أبعد ماتكون عن الموضوعات التي تعد «المعرض» الطبيعي للبيان عند الكتّاب والشعراء وأصحاب البيان! وهذه هي الجهة الثالثة التي أشار إليها الرافعي، أو التي يمكن أن تؤخذ من حديثه - بالإضافة إلى كلامه عن الجهتين السابقتين اللغوية والبيانية - والتي أسماها بالحكمة. وقال إن البلاغة النبوية سلمت لها هذه الجهات الثلاث في وقت واحد. يشير بذلك، فيما يبدو أو فيما نرجح، إلى أن اللغة والبيان ربما لم يستقيما أو لم يستقم أحدهما على أقل تقدير، ولعله البيان! لمن أراد من الكتّاب وأصحاب البيان أن يلزم نفسه (بالحكمة) النبوية أو بمضامين البيان النبوي. أو بعناوين موضوعاته على أقل تقدير! في الوقت الذي بلغ النبي صلوات الله عليه ببيانه هذا المحل الأسمى الذي لا يُضاهى في أدب العرب.

وبهذا نستطيع أن نقول إن السمة البلاغية التي تحدث ويتحدث عنها الرافعي من خلال هذه الجهات الثلاث هي سمة الكمال، أو **سمة التوازن الذي بلغ حدّ الكمال**

(٧٠) وحي القلم للرافعي ٣/ ٢٥.

والإبداع، والذي لم يعهد في غير كلام النبي ﷺ؛ وهذا هو سر ما أضافه النبي الكريم إلى ميراث اللغة العربية والبيان العربي من المعاني والكلمات المفردة. وهو عند الرافعي السبب فيما انفرد به الكلام النبوي من أسرار البيان وغرائب التركيب. يقول الرافعي: «ومن أجل ذلك تقرأ كلام البليغ من الناس، فترى الصنعة المحكمة، والطبع القوي، والصقل البديع، واللفظ المونَق، . ولكنك تصيب أكثر ذلك أو عامته على وجهه كما هو! ليس فيه سر من أسرار البيان، ولا دقيقة من أوضاع اللغة، ولا غرابة من التركيب تتحير فيها، وتقف عندها وتعطف برأيك عليها كلما هممت أن تمضي في الكلام، وتردّد نظرك في مصادرها ومواردها، على إصابتك من الصناعة، وبلوغك من الأدب، ورسوخك في حكمة البلاغة» (٧١). في حين أنك تجد ذلك كله في كلام رسول الله ﷺ، أو بعبارة أدق: تجد كلام رسول الله قد انطوى على جميع هذه الأسرار والدقائق. وانظر إن شئت إلى هذه الكلمات المفردة أو «الجامعة». كأمثلة أو شواهد لا تخطىء العين نمطها أو أمثالها حيث نظرت في كلام المصطفى ﷺ. قال عليه الصلاة والسلام في يوم بدر: «هذا يوم له ما بعده» وقال يوم الحديبية بعد أن أُخبر بأن القوم مقاتلوه وصادّوه عن البيت: «إنّا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم؛ فإن شاؤوا ماددْتهم مدّة ويخلّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلاّ فقد جمّوا! وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي، وليُنفذنّ الله أمره!» (٧٢) وقال يوم حنين: «الآن حمي الوطيس» (٧٣) وقال لأبي سفيان: «كل الصيد في جوف الفرا» (٧٤). وقال: «لا يُلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين» (٧٥) وقال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيّه ما شاء» (٧٦)

---

(٧١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢/ ٣٢٧.

(٧٢) رواه البخاري. ومعنى جمّوا: استراحوا وقووا. والسالفة: صفحة العنق.

(٧٣) الوطيس: التنّور ومجتمع النار والوقود!

(٧٤) قاله صلى الله عليه وسلم لأبي سفيان حين استأذن عليه فحجب قليلاً ثم أذن له، فلما دخل عليه قال: «ما كدت تأذن لي حتى تأذن لحجارة الجلهتين - والجلهة: ناحية الوادي - فقال النبي ﷺ هذا القول يتألفه على الإسلام.

(٧٥) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه.

(٧٦) متفق عليه.

وقال لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها وعن أبيها : «لا توكي فيوكى عليك، ارضخي بما استطعت» (٧٧) وقال عليه الصلاة والسلام في الأنصار : «أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم» (٧٨) وقال : «بُعثت في نفس الساعة» (٧٩).

وأخيراً، فإن هذه السمة التى يمكن أن تلخص - مرة أخرى - بسمة الكمال والإبداع . . يتم لها أن تفهم حق الفهم وتقدر حق القدر حين تضاف إلى السمتين السابقتين اللتين دار حولهما كلام الجاحظ رحمه الله، وبخاصة سمة التنزه عن الصنعة والتكلف. على أن الرافعي تحدث في ختام الجزء الذي عقده للبلاغة النبوية عن «**الخلوص والقصد والاستيفاء**» وقال ابن نسق البلاغة النبوية مبني على هذه الثلاث (٨٠). أما الخلوص فقد رجعنا به إلى حديثه الدائب عن اللغة والأسلوب، وقال إن الكلام النبوي منفرد فيهما جميعاً «لأنه لم يكن في العرب ولن يكون فيمن بعدهم أبد الدهر من ينفذ في اللغة وأسرارها وضعاً وتركيباً، ويستعبد اللفظ الحر، ويحيط بالعتيق من الكلام، ويبلغ من ذلك إلى الصميم على ما كان من شأنه ﷺ. ولا نعرف في الناس من يتهيأ له الأسلوب العصبي الجامع المجتمع على توثق السرد وكمال الملاءمة، كما تراه في الكلام النبوي» وأما «القصد» الذي قال الرافعي في شرحه : «وأما القصد والإيجاز والاقتصار على ماهو من طبيعة المعنى في ألفاظه، ومن طبيعة الألفاظ في معانيها. ومن طبيعة النفس في حظها من الكلام وجهتيه (اللفظية والمعنوية) . . . إلخ فقد أشرنا إليه. وسوف نخلص إلى وضع خلاصته في موضعها المناسب من خلال حديثنا التالي عن السمة الرئيسة أو الأساس للبلاغة النبوية كما يراها العقاد رحمه الله. وكذلك الحال في «الاستيفاء» الذي يخرج به الكلام مبسوط المعنى بأجزائه ليس فيها خداج ولا إحالة ولا اضطراب» (٨٠) كما يقول الرافعي.

---

(٧٧) متفق عليه.

(٧٨) رواه البخاري.

(٧٩) أي بعث والساعة قريب منه. انظر ما كتبه الرافعي حول هذا الحديث في اعجاز القرآن ص ٣٤٩ والحديث أخرجه الترمذي.

(٨٠) تاريخ آداب العرب ٢/ ٣٣٨.

وأبرز ما تمكن الإشارة إليه هنا قبل حديثنا التالي عن العقاد : أن اجتماع هذه الثلاثة في كلامه ﷺ وبناء بعضها على بعض، هو السبب عند الرافعي في سلامة «هذا الكلام العظيم من التعقيد والعيّ والخطل والانتشار. وسلامة وجوهه من الاستعانة بما لا حقيقة له من أصول البلاغة؛ كالمجاز البعيد الذي يغوص فيه إلى الأعماق الخيالية، وضروب الإحالة، وفساد الوضع المعنوي، وفنون الصنعة وما إليها مما هو فاش في كلام البلغاء، يعين جفاء البداوة على بعضه، ورقة الحضارة على بعضه، وهو في الجهتين باب واحد» (٨٠).

هذا مع الإشارة أخيراً إلى أننا لم نقف أمام تفريق الرافعي بين ضربين من الكلام النبوي : هذا الضرب الذي بُني على هذه الثلاث، والذي يمثل في الحقيقة أكثر كلام النبي ﷺ أو قاعدة هذا الكلام، وبين ضرب نادر أو عزيز، وهو الضرب الذي تكون ندرته - أو غرابته بحسب عبارة الرافعي - من تركيب وضعه في البيان. والذي لم يحدث بليغ في العربية منه ما أحدثه النبي صلى الله عليه وسلم (٨١)... إلخ وقد انطوت اختياراتنا قبل قليل في سياق الحديث عن سمة التوازن الذي بلغ حد الكمال والإبداع على هذين النوعين أو الضربين من البلاغة النبوية.

**٣ - العقاد : خلاصة وتعقيب :**

يرى العقاد أن السمة الغالبة على أسلوب النبي هي سمة الإبلاغ قبل كل سمة أخرى. ويضيف : «بل هي السمة الجامعة التي لا سمة غيرها، لأنها أصل شامل لما تفرق من سمات هي منها بمثابة الفروع» (٨٢) وهكذا يمكننا القول إن السمة الرئيسة أو الأساس للبلاغة النبوية عند العقاد هي سمة الإبلاغ. وقد وقف الأستاذ العقاد على هذه السمة من خلال هذه اللازمة التي ردّدها النبي ﷺ في خطبته الطويلة في حجة الوداع التي كانت أول وأهم إعلان عالمي لحقوق الإنسان في التاريخ. وهذه اللازمة هي قوله : «ألا هل بلّغت.. اللهم فاشهد»!. والحق أنها لازمة بعيدة الدلالة لأنها لخّصت حياة كاملة في ألفاظ معدودات، فلم تكن حياة النبي الكريم -

---

(٨١) انظر في المصدر السابق الفصل الذي عقده الرافعي تحت عنوان : «تأثيره صلى الله عليه وسلم في اللغة» ص ٣١٥ فما بعدها.

(٨٢) عبقرية محمد للعقاد، ص ١٠٥ المكتبة العصرية بيروت، ١٩٦٩.

عملاً وقولاً - إلا ترجمة صادقة لقول الله تبارك وتعالى : ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ حتى إذا قام عليه الصلاة والسلام بهذا البلاغ . وشارف على نهايته وغايته . لم يجد أولى من أن يكرر تلك اللازمة أمام الجموع التي استجابت لهذا البلاغ في أرجاء الجزيرة العربية . «اللهم قد بلّغت»!

يقول العقاد : «وكلام النبي المحفوظ بين أيدينا إما معاهدات ورسائل كتبت في حينها، وإما خطب وأدعية ووصايا وأجوبة عن أسئلة كتبت بعد حينها، وروعيت الدقة في المضاهاة بين رواياتها جهد المستطاع . والإبلاغ هو السمة المشتركة في أفانين هذا الكلام جميعاً، حتى ما جرى منه مجرى القصص، أو مجرى الأوامر إلى المرؤوسين، أو مجرى الدعاء الذي يلقنه المسلم ليدعو الله على مثاله (٨٣) . وأصدق ما يقال في تعريف هذه السمة ما قيل في تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة : أقرب موصل بين نقطتين» .

وقد أورد العقاد النقاط التالية؛ تفسيراً وشرحاً لهذه السمة، أو تعقيباً عليها . بل يمكننا القول بعبارة أخرى : إن العقاد فسرّ من خلال هذه السمة السمات البارزة التالية، أو خرّجها عليها :

١ - خلوّ الكلام النبوي من الكلفة والغموض والإغراب . . "فمحمد العربي القرشي - صلوات الله عليه - الناشىء في بني سعد، العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية في أطراف الجزيرة، لم يكن في كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعه . وسرّ ذلك أنه يريد أن يبلغ، أو يريد أن يصل إلى سامعه، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزاً من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب» (٨٤) .

ويرى العقاد بهذه المناسبة أن قلة الغريب - بل ندرته - في كلام النبي أجدر الأمور بالملاحظة في إقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية .

ويمكننا أن نلاحظ هنا أن أكثر هذا الغريب - النادر - داخل في حد البلاغ، أو في سمة الإبلاغ وليس بخارج عنها، لأنه جاء غالباً في تلك الكتب التي كان

---

(٨٣) المصدر السابق، ص ١٠٦ .

(٨٤) نفس المصدر، ص ١١٠ .

يمليها النبي ويبعث بها إلى قبائل العرب (٨٥) «يخاطبهم فيها بلحونهم، ولا يعدو ألفاظهم وعبارتهم فيما يريد أن يلقيه إليهم» أو جاء أثناء حديثه مع وفود العرب. حتى إن علياً رضي الله عنه قال له، وقد سمعه يخاطب وفد بني نهد: يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره! فقال عليه السلام: «أدّبني ربيّ فأحسن تأديبي» (٨٦).

٢ - خلو الكلام النبوي كذلك من الحشو والتكرار والزيادة. أما «التكرار» الذي جاء في كلامه صلى الله عليه وسلم للفظ بعينه، أو جملة بذاتها، كما جاء في بعض المعاهدات - وفي بعض الأحاديث - فهو من سمات البلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق حتى يمنع الاختلاف والتأويل في أسلوب المعاهدات والمواثيق، أو على سبيل الإعادة التي كان يتوخاها عليه السلام في بعض الأحيان ليُحفظ عنه كلامه ويعقل (٨٧). وبخاصة - فيما يمكن ملاحظته - حين يكون الموضوع خطيراً أو عظيم الشأن، والناس لاتظنه كذلك، أو تحسبه هيناً لاخطر فيه! كما جاء في حديث أكبر الكبائر على سبيل المثال؛ روى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي بكر رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: (ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر - ثلاثاً - قالوا: بلى يا رسول الله! قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. وجلس وكان متكئاً فقال: ألا وقول الزّور، ألا وقول الزور. قال: فمازال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!» فأكبر الكبائر الثلاث يلمح النبي الكريم إلى خطورتها بتكرار الجملة الأولى ثلاث مرات! حتى إذا انتهى إلى الحديث عن أكبرها - وقد يقع في الظن أن الشرك بالله أكبر وأخطر! - أعطاه حقه الزائد أو المضاف بتعديل هيئته في الجلوس. وبمزيد من التكرار فاق توقع الصحابة أجمعين. حتى قالوا في أنفسهم وهم يسمعونه - بعد أن شاهدوه وقد اعتدل في جلسته - يكرر قوله: «ألا وقول الزور.» مرات ومرات: ليته سكت! إشفاقاً عليه ﷺ! أليس هذا التكرار هو سمة البلاغ أو عين البلاغ في هذا الموطن؟

---

(٨٥) انظر جمهرة رسائل العرب ١/ ٥١-٦٠.

(٨٦) هذا الحديث وثّقه الترمذي، وقال في سنده كثيرون.. وإن كان لا خلاف على صحة معناه. راجع كشف الخفا للعجلوني ١/ ٧٠.

(٨٧) عبقرية محمد للعقاد، ص ١١١.

الشرك بالله أثره على صاحبه، وعقوق الوالدين أثره في الأسرة الصغيرة. أما قول الزور فأثره في المجتمع الكبير. أو في المجتمع الإنساني بأسره! لأن أمر قيام هذا المجتمع بالحق. أو بأن يصل كل صاحب حق إلى حقه. فإذا حالت شهادة الزور دون ذلك. أو إذا قلبت الحق باطلاً، والباطل حقاً. لا جرم أنها كانت كبيرة الكبائر. وتحسبون الأمر هيناً وهو عند الله، وفي عين رسوله عظيم!

٣ - وكذلك «السجع» الذي ورد في بعض كلامه ﷺ لايخرج عن سمة الإبلاغ؛ لأنه جاء خلواً من الغريب، وبعيداً عن الغموض والتكلف، وعن الحشو والزيادة كذلك! فهو حلية لفظية لا يتبع لها المعنى، ولكن تتبع هي له، ولا تنقصه بل تزيده وتساعد على أدائه وحفظه حيث يجب في مثله الحفظ والأداء، ولذلك غلب أن يكون ذلك «فيما يرتل علانية كالأذان وما هو في حكمه، أو فيما يحفظ من الوصايا الجامعة» كما يقول العقاد (٨٨)، كقوله: «ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله؟ ماكان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط! قضاء الله حق، وشرط الله أوثق، وإنما الولاء لمن أعتق» (٨٩) أو قوله: «إن الله حرّم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعاً وهات. وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال» (٩٠) ولعل أبرز ماجاء فيه الكلام النبوي مسجوعاً الدعاء، لأن ذلك مما يساعد فيه على الحفظ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة» (٩١).

قال العقاد: «ومذهبه - ﷺ - في هذه الحلية اللطيفة مذهبه في كل حلية تليق بالرجل: فحولة في القول، وفحولة في الزينة» ولهذا وصف العقاد هذا السجع بأنه كحلية الذهب؛ بمعنى أنها حلية توشي الكلام النبوي وتزيده حسناً، ولكنها لا تغلب عليه حتى تستغرقه أو تخرج به عن حدود الذوق والجمال!

---

(٨٨) المصدر السابق، ص ١١٢.

(٨٩) أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي وأبو داود بألفاظ متقاربة.

(٩٠) متفق عليه.

(٩١) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

٤ - ونشير هنا، قبل أن نتابع في الحديث عن العقاد، وعن السمات التي فرّعها على هذه السمة الأساس، إلى أن ما تحدث عنه الرافعي من خلو كلام النبي ﷺ من المجاز المعقد، ومن ضروب الإحالة وفنون الصنعة. وما إليها - وهو ما تحدث عنه الجاحظ من قبل في سمة التنزه عن الصنعة والتكلف - يمكن فهمه جميعاً في ضوء سمة الإبلاغ هذه أو تخريجه عليها. لأن جميع هذه الضروب تمثل طريقاً ملتوياً أو بعيداً في وصول رسالة البلاغ أو بلاغ الرسالة إلى الناس أجمعين.

كما نشير كذلك إلى أن سمات الخلوص والقصد والاستيفاء التي تحدثنا عنها آنفاً عند الرافعي، يمكن عدها تعبيراً عن «الكلام الذي قل عدد حروفه وكثرت معانيه» عند الجاحظ، أو عن أبرز وجوه هذه السمة. وفي جميع الأحوال فإن سمة الإبلاغ التي يتحدث عنها العقاد يمكن أن تشمل هذه السمات التي تحدث عنها الرافعي. وتلك التي تحدث عنها الجاحظ. لأن الكلام النبوي القائم على الوجازة وحذف الفضول، بخاصة، هو في الوقت نفسه تام المعنى، مبسوط الأجزاء لا ينقطع به الاختصار والقصد، ولا يكبو دون الغاية. لأنه صورة تامة لأداء معاني الرسالة من أقرب نقطة، أو عبر خط مستقيم. وهذا هو فحوى سمة الإبلاغ كما تحدث عنها العقاد، وكما أشرنا إليها قبل قليل.

٥ - ولا يدل على هذه السمة الغالبة شيء كما يدل عليها اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات، وقد يبسطها الشارحون في مجلدات» وهو المعبرّ عنه - في أدبيات الحديث النبوي - بـ «جوامع الكلم» وقد أشار إليها النبي نفسه ﷺ بقوله: «وأُعطيت جوامع الكلم» (٩٢). في سياق ما انفرد به، أو ما أُعطيه عليه السلام دون سائر من تقدمه من الأنبياء والمرسلين.

والأمر هنا - فيما نلاحظ - ليس في وجود هذا الضرب من البيان في كلامه ﷺ؛ فإن البليغ في أمة من الأمم قد يمتاز بكلمة من نحوه أو كلمات - وهو في العربية معدود على الرغم من أن شعراءها وأدباءها لا يأخذهم العد - ولكن في كثرة هذا

---

(٩٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

الكلام الجامع وغلبته في بلاغة النبي الكريم. بل في كون «جوامع الكلم» هذه تعبر عن الكلام النبوي أدق تعبير، وتمثله أصدق تمثيل. على الرغم من توسع «ميدان» هذا الكلام، وخصوصية «موضوعاته». كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ومن أمثلة هذه الجوامع: علم السياسة، الذي اجتمع كله في قوله ﷺ: «كما تكونوا يُولّ عليكم» يقول العقاد: «فأي قاعدة من القواعد الأصيلة في سياسة الأمم لا تنطوي بين هذه الكلمات؟ ينطوي فيها أن الأمم مسؤولة عن حكوماتها لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات: عذر بالجهل، أو عذر بالإكراه، لأن الجهل جهلها الذي تعاقب عليه، والإكراه ضعفها الذي تلقى جزاءه!

«وينطوي فيها أن العبرة بأخلاق الأمة، لا بالنظم والأشكال التي تعلنها الحكومة، فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين، ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال.

«وينطوي فيها أن الولاية تبع تابع وليست بأصل أصيل، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأحرى ألا يغير الوالي قوماً حتى يتغيروا هم قبل ذلك.

«وينطوي فيها أن الأمة تستحق الحكم الذي تصبر عليه ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال.

قال العقاد: «وذلك هو الإبلاغ الذي ينفذ في وجهاته كل نفاذ»

ويضيف: «ويلحق بهذا في العلم بالتبعات: قوله عليه الصلاة والسلام: «أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل».

«فالمزايا الإنسانية واجبات وأعباء، وليست بالمتع والأزياء. وعلم الإنسان بالخير والشر يفرض عليه الفرائض التي يبتلى بها، ولا يهنئه بالراحة التي يصبو إليها، وهو محسوب عليه، وكذلك ذكاؤه محسوب عليه».

قال: «وأمثال هذه الأحاديث في أصول السياسة والأخلاق والاجتماع، مما لا يتناوله الإحصاء في هذا المقام»(٩٣).

---

(٩٣) العقاد، مصدر سابق، ص ١١٧-١١٨.

وغني عن البيـان، في هـذا السيـاق، أن مـا جـرى من كـلامـه ﷺ مجرى الحكم والأمثال - وذلك كثير - إنما هو صورة من صور جوامع الكلم، أو نموذج منها «ومثال» وقد يكون أكثر هذه الصور شيوعاً لدى العامة، وأكثرها «تناولاً» عنـد المشتغلين بالأدب والبلاغة من الخاصة.

وقد نلاحظ كذلك كثرة الاستعارات والتشبيهات في البلاغة النبوية. نظراً لأثرها الذي لايخفى في نقل المعاني وإبراز الأحكام. أو في الوضوح والتأثير. وتلك هي سمة الإبلاغ ووظيفة الأدب في آن معـاً! وإن شئت قلت: هي مهمـة الـرسـول البليغ المبلّغ تبدو في حلّة من أزهى حُللها. وصورة من أجمل وشيها وصورها!

٦ - وأخيراً، فإن سمـة الإبـلاغ هي التي طبعت كـلام النبي ﷺ بطـابع العصريـة، وأخرجته من حـدود الـزمـان، لأن رسـالتـه ليست لـزمـان دون زمـان، ولأن «الأسلـوب الـذي يخرج من الفطـرة المستقيمـة هـو أسلـوب عصري في جميع العصور».

وهذا - كما يقول العقاد - يخطىء «من يحسب الوصل بين الجمل شرطـاً للكـلام العربي القديم، والفصل بينها علامة من علامات الأساليب المبتـدعـة في الـزمن الأخير. ويخطىء كذلك من يحسب قبول الكلام لإشارات الترقيم علامة أخرى من علامات هذه الأساليب» (٩٤).

ولا يتسع المقـام لتفصيل القـول في هـاتين النقطتين اللتين أشـار إليهمـا العقـاد. وأكتفي بالقول: إن شأن الحديث في هذا شأن القرآن الكريم. وأنظـر الآن في كتـاب الحديث الذي بين يديّ. فيتفق لي لا على التعيين قراءة الحديث التالي: عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن رسول الله في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس فقال: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنّة تحت ظلال السيـوف» ثم قـال: «اللهم مُنـزل الكتـاب، سريع الحسـاب، اللهم اهـزم الأحـزاب، اللهم أهـزمهم وزلزلهم» رواه البخاري وغيره.

---

(٩٤) المصدر السابق.

وكما خرج كلام رسول الله عن حد التكلف والبلاغة المصطنعة . . فقد خرج كذلك عن قوالب وأساليب العصور! وعلى هذا الاعتبار كان أسلوب النبي - كتابة وخطابة - أسلوباً يقتدى به المعاصرون في زماننا هذا وفي كل زمان .

وفي ذلك يقول الرافعي رحمه الله : «ولذا ترى كلامه صلى الله عليه وسلم يخرج من حدود الزمان، فكل عصر واجدٌ فيه ما يقال له . وهو بذلك نبوة لا تنقضي، وهو حي بالحياة ذاتها، وكأنما هو لون على وجه منها، كما ترى البياض مثلاً هو اللون على وجه طائفة من الجنس البشري» (٩٥) والله أعلم .

---

(٩٥) وحي القلم ٣/ ١٧